العجوز والبحر

obeikandl.com

© دار خـــــان
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١٥
رقم الإيداع ٢١٢٩٤ / ٢٠١٥
ISBN: 978 - 977 - 5185 - 38 - 9
دار خـــــان
ص.ب: ١٣٢ رمسيس-القاهرة- مصر
هاتف: ٠١٠٠٥٥٣٩٤٧٢
E-mail: Darkhan.egypt@gmail.com
Dar Khan
P.O.Box 132 Ramses-Cairo-Egypt
Tel.:01005539472

obeikandl.com

سلسلة كتب عالمية

رواية من أمريكا

العجوز والبحر

تأليف/ إرنست همنغواي

ترجمة/ عبد الحميد زاهيد

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

إرنست همنغواي

العجوز والبحر

obeikandl.com

obeikandl.com

إرنست همنغواي
«١٨٩٩-١٩٦١»

ولد همنغواي في ٢١ يوليو سنة ١٨٩٩ في ضاحية من ضواحي شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، روائي كبير تخصص في كتابة القصص القصيرة. يعد من رواد الرواية في القرن العشرين، حاز على جائزة نوبل في الآداب سنة ١٩٥٤.

ولد همنغواي من أب طبيب، كان أبوه بحارا وقناصا، يعشق ركوب البحر وصيد الأسماك، وقنص الحيوانات البرية.
كانت حياة همنغواي امتدادا لحياة والده، ولكن في الوقت ذاته تسعى إلى التغيير؛ فقد ثار همنغواي على عادات المجتمع وتقاليده كما ثار على المكان الذي ولد فيه.

استكمل همنغواي دراسته الثانوية سنة ١٩١٧ ولم يلتحق بالدراسة في الجامعة، بل سرعان ما دخل إلى معترك الحياة ليعمل مراسلا لجريدة

obeikandl.com

"استار" (النجم) في مدينة "كانسس".

كانت لدى همنغواي رغبة جامحة في الالتحاق بالعسكرية، إلا أن عيبا في عينه حال دون ذلك. ورغم ذلك، استطاع أن يعمل كسائق لسيارة إسعاف الهلال الأحمر الأمريكي، وقبل أن يبلغ التاسعة عشر، جرح في "فوسالتا دى بييف" بإيطاليا، وقد منحه الإيطليون وسام البطولة. عولج همنغواي في مستشفي بمدينة "ميلان" وهناك وقع في حب ممرضة تعمل في الهلال الأحمر والتي رفضت الزواج منه، كان لهذه التجربة أثر كبير في حياته.

بعد هذه التجربة الفاشلة، تزوج همنغواي من سيدة اسمها "هادلي دريتشاردسون" ليشد الرحال إلى فرنسا مراسلا لجريدة "تورونتو استار". هناك في باريس، تعرف على كتاب أمريكيين، نذكر منهم على الخصوص "إزرا بوند جينترود" و"سكوت"، وقد وجهوه وشجعوه لدخول عالم الكتابة، وسرعان ما ظهر له سنة ١٩٢٥، كتاب ضمنه مجموعة قصصية بعنوان "In Our Time".

وفي سنة ١٩٢٦، دخل همنغواي عالم الشهرة بروايته "The Sun also Rises" (الشمس تشرق أيضا) رواية حكى فيها عن "الجيل الضائع" بعد الحرب العالمية الأولى. كان لهذه الرواية أثر كبير على القراء والنقاد، كما كانت بداية الاهتمام به كاتبا متميزا في المحافل العلمية.

تزوج همنغواي أربع مرات، وأنجب ثلاثة أطفال، كانت "ماريا ويلش" الزوجة الرابعة التي رافقت همنغواي بقية حياته.

استقر همنغواي في باريس، ليسافر منها إلى إسبانيا ليتمتع بمصارعة الثيران، وإلى أفريقيا لصيد الحيوانات البرية، وإلى فلوريدا لصيد الأسماك في أعماق البحار. كانت هوايات همنغواي المتعددة تأخذ منه

الوقت الكثير، وقد اعترف ذات مرة أنه لو أمضى وقتا أقل مما أمضاه من ممارسة هواياته لكتب أكثر مما كتب.

في سنة ١٩٢٧ صدر لهمنغواي "Man without Woman" (رجل دون امرأة)، كما صدر له سنة ١٩٢٩ A Farewell to Arms (وداعا للسلاح). تألقت هذه الرواية، وألقت بظلالها على ما سبق من أعمال همنغواي؛ فقد استطاع بحنكته وتجاربه أن يجمع فيها بين قصة غرامية، وقصة حرب استوحاها من ماضيه العسكري، وهو يحارب في الجبهة الإيطالية.

دفعه حبه إلى إسبانيا وشغفه بمصارعة الثيران لأن يكتب سنة ١٩٣٢ رواية Death in the Afternoon (موت ما بعد الظهيرة)، صور فيها كيف تحول مشهد مصارعة الثيران من رياضة إلى أحداث درامية. كما دفعه حبه إلى أفريقيا إلى كتابة روايته Green Hills of Africa (تلال إفريقيا الخضراء) سنة ١٩٣٥ صور فيها مغامرات صيده في براريها.

لم يغب الجانب الاجتماعي عن حياة همنغواي، فسرعان ما عاد إلى إسبانيا، ولكن ليس إلى ممارسة هوايته مصارعة الثيران، بل مراسلا صحفيا ينقل أحداث الحرب الأهلية التي عاشتها إسبانيا في تلك الفترة، ومناصرا يجمع المال للموالين للحكومة ضد ثورة الجنرال فرانكو. وفي أثناء هذه الأحداث، كتب سنة ١٩٣٨ مسرحية بعنوان The Fifth Column (الطابور الخامس) والتي وصف فيها تجارب الحرب والسلم التي عاشها في إسبانيا، وقد لقيت هذه الرواية صدى كبيرا كما حققت رقما قياسيا في المبيعات.

كان همنغواي مغرما بالحرب بل لا يهدأ له بال إلا وسط طبولها وجلاجلها. بعد الحرب الأهلية الإسبانية، ذهب همنغواي إلى كوبا

واشترى ضيعة هناك في ضواحي "هافانا" وجعلها مستقرا له ينطلق منها لتغطية الاجتياح الياباني للصين.

لم يستقر هناك طويلا، حتى عاد لينضم إلى الفرقة الثانية والعشرين للمشاة في الجيش الأمريكي، حيث شارك في معركة "نورماندي وبالج"، كما شارك في تحرير باريس. كانت مشاركته فعالة؛ فقد أثار إعجاب الجنود والضباط، لم يبد همنغواي في هذه المعارك بطلا فقط بل بدا أيضا خبيرا متمرسا بحرب العصابات، ومخبرا ماهرا في جمع المعلومات.

وضعت الحرب أوزارها، وعاد همنغواي إلى "هافانا" ومعه زوجته الرابعة ليستقر هناك. كان مولعا بالأسفار ولعا كاد يكلفه حياته مرتين؛ فقد تحطمت به الطائرة مرتين في سماء أفريقيا. أصيب فيها بجروح ونجا من موت محقق.

في سنة ١٩٥٢، كتب همنغواي روايته المشهورة The Old Man and the Sea (الشيخ والبحر) يحكي فيها قصة شيخ كوبي صاد سمكة كبيرة في عرض البحر فاعترضت سبيله القروش وقاتلها بكل حزم وشدة. كانت هذه الرواية التراجيدية سببا في حصول همنغواي على جائزة نوبل في الآداب لما تحمله من أبعاد إنسانية ومن تصوير بارع لصراع الإنسان مع الطبيعة.

حصل همنغواي سنة ١٩٥٣ على جائزة "بولترز"، والتي كانت مقدمة لحصوله على جائزة نوبل في الآداب سنة ١٩٥٤.

في سنة ١٩٦٠، جاءت ثورة "فيديل كاسترو" وطردت همنغواي من المكان الذي أحبه وارتبط به ليجد نفسه مضطرا إلى العودة إلى "أيداهو" حيث اشترى منزلا في "كيتشام". حاول همنغواي جاهدا أن

يعيش حياته كما كان، ولكن ذلك لم يدم طويلا حتى أصيب بكآبة وقلق فاتكين عولج إثرها مرتين في المستشفي. وبعد عودته إلى البيت بيومين، قرر همنغواي أن ينهي حياته بطلقة نارية في الثاني من يوليوز ١٩٦١ ليتوارى عن الأنظار إلى الأبد، ولكن الزمن احتفظ باسمه عظيما من عظماء عصره في فن صياغة الذات.

ترك همنغواي كمًا من المخطوطات، نشر بعضها بعد وفاته. ففي سنة ١٩٦٤ نشرت له رواية A Moveable Feast (المنقولة) يحكي فيها ذكريات أيامه في باريس، كما نشرت له سنة ١٩٧٠ Islands in the Stream (جزر في المجرى) يحكي فيها ذكريات أيام الهدوء التي قضاها في كوبا.

كان همنغواي رجل المتناقضات؛ فقد كان كريما كثير الإسراف، وأنانيا لا يفكر إلا في ذاته، واجتماعيا بطبعه يعشق الحديث إلى الناس ومعرفة أحوالهم، ومنعزلا متأملا في ملكوت الكون.

كان همنغواي عاشقا للمتعة اللذة، مرتميا في أحضان الحب طلبا للحياة، متحديا الصعاب طلبا للموت، عاشقا للرياضة، ولوعا بالمطالعة، سكيرا يهوى الخمر والنهوض مبكرا، رجلا قويا صلبا واثقا بنفسه، بل كان هو نفسه ظاهرة تشخص الشجاعة وتحدي الصعاب، فالشجاعة عند همنغواي شيء ناعم لا ينضب وسط ضغط لا يرحم. هذه الشجاعة التي طالما تسلح بها في مواقف صعبة سرعان ما هجرته بلا رحمة، وتركته وحيدا يصارع الموت.

المصادر:

- The New Encyclopedia Britannica volume ١٥ .٥ Th Edition.
- The Encyclopedia Americana International Edition. Volume ١٤.

obeikandl.com

العجوز والبحر

في زمان مضى، كان هناك رجل عجوز يصيد السمك وحيدا في مركبه بخليج ستريم، منذ أربعة وثمانين يوما لم يظفر بسمكة واحدة! في الأربعين يوما الأولى منها، رافقه طفل صغير يعينه على أمره، لم يصد الشيخ شيئا فتشاءم أبوا الطفل من الشيخ قائلين لابنهما: إن الشيخ لا محالة فاشل ونحسه لا يرجى من ورائه خير. اشتغل الطفل في مركب آخر، وفي أسبوع فقط، اصطاد ثلاث سمكات عالية الجودة.

في نهاية كل يوم، يحزن الطفل وهو يرى معلمه لا يملك شيئا، فكان يذهب دائما لمساعدته على حمل الحبال، ورمح الصيد، ولف الشراع حول السارية. شراع يبدو مرقعا بأثواب قديمة لأكياس من الدقيق كأنه علم للهزيمة المتوالية.

كان شيخا نحيفا هزيلا، تناثرت على قفاه تجاعيد عميقة، وبدت على وجنتيه قروح سمراء، وكان لانعكاسات الشمس على صفحة مياه

obeikandl.com

البحر أثر في انتشار تلك القروح على جانبي وجهه؛ أما يداه، فرسمت عليها الحبال، حين تكون مثقلة بالأسماك، جراحا عميقة. لم يكن من بين تلك الجراح جرح جديد؛ كانت كلها قديمة قدم التعرية في صحراء بلا سمك.

بدت عليه علامات الشيخوخة إلا عينيه؛ كانتا كلون البحر مشرقتين غير مهزومتين.

- سانتياغو.

هكذا ناداه الغلام، وهما يصعدان الرصيف الذي يجر منه الشيخ قاربه

- أستطيع أن أرافقك ثانية، فالمال معنا.

كان الغلام يحب الشيخ كثيرا؛ إذ كان أول من علمه فنون الصيد.

أجاب الشيخ:

- لا، أنت في مركب محظوظ، وأريدك أن تبقى حيث أنت.

- ولكن تذكر كيف مر عليك سبعة وثمانون يوما دون أن تصطاد شيئا، وقد كنا نصطاد كل يوم أسماكا كبيرة لمدة ثلاثة أسابيع.

قال الشيخ:

- نعم أذكر، وإني أعلم جيدا أنك لم تفارقني لأنك في ريب من أمري.

أجاب الغلام:

- أرغمني أبي على الرحيل، وأنا صبي، وعلي ألا أعصي له أمرا.

- أعرف ذلك، تلك أمور مألوفة من شخص ضعيف الإيمان.

- أما نحن فإيماننا قوي، ألسنا كذلك؟

- بلى.

أجاب الغلام، ثم استطرد قائلا:

- هل لي أن أدعوك إلى شرب جعة فوق السطيحة، بعدها نحمل أدوات الصيد، ونذهب إلى البيت؟

فأجاب الشيخ:

- ولم لا! إنها عربون محبة بين الصيادين.

obeikandi.com

جلسا فوق السطيحة حيث زمرة من الصيادين يسخرون من الشيخ، أما بعضهم الآخر، من المسنين، فكانوا يشفقون على حاله ويسترقون منه نظرات حزن وشفقة وهم يتحدثون عن التيار والأعماق التي أودعوها شباك رزقهم، وعن الجو الهادئ، وعن كل شيء شاهدوه.

أما الصيادون المحظوظون في ذلك اليوم، فمنهم منهمكون بسلخ سمك المرلين، يحملونه على لوحين خشبيين إلى المسمكة، حيث ينتظرون عربة التبريد لحمله إلى سوق هافانا، أما الآخرون الذين كانت أسماك القرش من حظهم فقد أخذوها إلى المصنع على الضفة الأخرى من الخليج، حيث ترفع على الألواح لتنزع أكبادها، وتقطع زعانفها، وتسلخ جلودها، وتقطع لحومها إربا لتوضع في المملحات.

كانت الرياح التي تهب من الشرق تحمل معها رائحة مصنع القرش إلى المرفإ؛ أما اليوم، فقد تحولت من رياح شرقية إلى رياح شمالية، ولم يعد يصل إلى المرفإ إلا رائحة ضعيفة سرعان ما تتلاشى. وكان الجو على السطيحة هادئا ومشمسا.

قال الغلام:

- سانتياغو!

فأجابه العجوز وهو يحمل كأسه، ويُفكر في السنين الخالية:

- نعم!

- هل تود أن آتيك بالسردين لكي تصطاد به غدا؟

- لا، اذهب، والعب البيسبول، فإني قادر على التجديف، وسيلقي روجيليو الشباك.

- ولكني أحب أن أصحبك، وإن كان لا يمكنني أن أصيد معك، فإني أحب أن أخدمك على أية حال.

- لقد أديت عني ثمن جعة.

قال الشيخ:

- لقد أصبحت الآن رجلا.
- وكم كان عمري يوم أخذتني لأول مرة معك في القارب؟
- كانت لك خمس سنوات وكدت يومها أن تلقى حتفك عندما اصطدت سمكة غضة طرية كادت أن تحطم القارب إلى أشلاء، أتتذكر ذلك؟
- كيف لا أتذكر؟ أتذكر ضربات ذنبها، ومقعد التجديف ينكسر. أتذكرك وأنت تقذف بي إلى مقدم القارب حيث الحبال المبتلة، كما أتذكر ضربك للسمكة حتى سالت دماؤها حولي، وتطايرت على جسمي، وكنتَ كمن يقتلع شجرة ضخمة ويرديها أرضا.
- هل تستطيع حقا أن تتذكر ذلك، أم هو مما حكيته لك؟
- أتذكر كل شيء مذ أول ما ذهبنا سويا.

ونظر الشيخ إلى الغلام بعينين لفحتهما الشمس، عينان مفعمتان بالحب والثقة بالنفس.
- لو كنت ابني لاصطحبتك في مغامرتي إلى أعماق البحار، ولكن لك أب وأم، وأنت الآن في قارب محظوظ.
- هل بإمكاني أن آتيك بالسردين؟ إنني أعرف من أين آتيك بأربعة طعوم أيضا.
- لدي ما يكفيني منها، لقد وضعتها في الملح داخل الصندوق.
- دعني آتيك بأربع طازجات.
قال الشيخ، والأمل والثقة بالنفس لم يفارقاه قط، وكأنهما يتغذيان من نسيم البحر العليل:
- واحدة فقط.
ألح الغلام على اثنتين، فوافقه الشيخ شريطة ألا تكون السمكتان مسروقتين.
قال الشيخ:
- شكرا،

كان الشيخ بسيطا إلى الحد الذي يتساءل فيه متى أحرز هذا التواضع، ولكنه كان يعلم أن ذلك من طباعه، ويعلم أيضا أنه غير مشين ولا يؤول به إلى فقدان الكرامة.

قال الشيخ:

- إن التيار ينبئ بغد أفضل، وبجو رائع.

ثم سأله الغلام:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- سأذهب بعيدا وأعود مع الريح عندما تغير وجهتها، أريد أن أكون في عرض البحر قبل أن ينجلي الصبح.

قال الغلام:

- سأحاول أن أحمل معلمي على الذهاب حيثما تذهب، إذاك، أستطيع مؤازرتك عندما تكون في أمس الحاجة إلي.

- ولكن معلمك لا يحب أن يصطاد في أعماق البحار.

قال الغلام:

- لا، ولكني أستطيع أن أرى ما لا يقدر على رؤيته، كأن أرى طائرا يتعقب طريدة، فأحثه على التجديف في عرض البحر بحثا عن الدلفين.

- هل يشكو من ضعف البصر إلى هذا الحد؟

- إنه أعمى تقريبا.

فقال الشيخ:

- أمر عجيب! معلمك لم يكن يصطاد السلاحف البحرية؛ فصيدها يعمي الأبصار.

- ولكنك أفنيت عمرك في اصطيادها في (ساحل البعوض) دون أن يلحقك أي أذى، وها أنت تنعم ببصر حاد.

- لا تنشغل بأمري؛ فأنا شيخ غريب ذو طبع غريب.

- ألا زالت لك القدرة على اصطياد الأسماك الكبيرة؟

- أظن ذلك، لدي من الحيل الكثير.

قال الغلام:

obeikandl.com

- دعنا نحمل الأدوات إلى المنزل؛ فإني أود أن آخذ الشبكة لأصطاد بعض سمك السردين.

نقلا المعدات من القارب، فحمل الشيخ السارية على كتفيه؛ وحمل الغلام الصندوق الخشبي، والرماح والحربون، والحبال السمراء المظفورة بإحكام. أما صندوق الطعم فكان مُخَبَّأً تحت مؤخرة القارب مع الهراوة التي يضرب بها الشيخ الحيتان الكبيرة عند ربطها إلى القارب لتسحب إلى الشاطئ.

لا أحدا يجرؤ على سرقة مركب الشيخ، ولكنه يفضل أخذ الشراع والحبال إلى المنزل؛ تفاديا لتآكلها مع الزمن بفعل قطرات الندى المنبعثة من البحر. وبالرغم من ثقة الشيخ في أهل الحي وفي أن أيديهم لن تتطاول على مركبه، إلا أنه يرى في ترك الرماح والحربون في المركب إغراء عديم الفائدة.

ثم سارا في الطريق صوب كوخ الشيخ، فوجدا بابه مشرعا، فدخلا. أسند الشيخ السارية والشراع المطوي على الحائط، ووضع الغلام الصندوق وباقي المعدات. كان طول السارية يراوح طول غرفة الكوخ؛ غرفة يتيمة صنعت حيطانها من سعف النخل الصلب الذي يطلق عليه (غوانو) (Guano). كان الكوخ بسيطا بساطة صاحبه. فلم يكن فيه غير مرقد وطاولة وكرسي ومكان موحل يطبخ فيه الشيخ قوته على الفحم. وعلى الجدران السمراء المسطحة -التي تتشابك عليها أوراق النخل ذات الألياف القوية- ثُبتت صورتان: إحداهما لقلب يسوع الأقدس، والأخرى لعذراء كوبر.

كان هذا كل ما يملكه من تذكار لرفيقة عمره. وإلى جانب الصورتين، صورة باهتة الألوان لزوجته الراحلة، كلما نظر إليها أحس بالوحدة

والأسى؛ فارتأى أن يدفنها في رف في إحدى زوايا الكوخ، في قميصه النظيف الذي لا يملك سواه.

سأل الغلام:

- هل عندك شيء تأكله؟

- صحن من الأرز الأصفر بالسمك، هل تريد أن تؤاكلني؟

- شكرا، سآكل في المنزل، هل تريد أن أوقد لك النار؟

- شكرا، سأوقدها فيما بعد، أو سآكل الأرز باردا.

- هل بإمكاني أن آخذ شبكة الصيد؟

- طبعا.

لا وجود لأي شبكة صيد؛ فالغلام يتذكر جيدا متى باعها الشيخ ليستعين بها على أمره، كما كان يعلم أيضا أن الشيخ لا يملك أرزا ولا سمكا، وإنما كان يحلو لهما في كل يوم أن يتجاذبا أطراف حديث من نسج الخيال.

قال الشيخ:

- خمسة وثمانون، كم تحب أن تراني وأنا أجلب معي سمكة يفوق وزنها ألف رطل! ؟

- سآخذ شبكة الصيد لأصطاد بعض السردين، هل ستجلس تحت أشعة الشمس أمام الباب؟

- نعم، إن لدي جريدة الأمس، وسأقرأ أخبار البيسبول.

لم يكن الغلام يعلم إن كانت جريدة الأمس هي أيضا من نسج الخيال، إلا أن الشيخ أخرجها من تحت مرقده.

ثم أوضح قائلا:

- لقد أعطاني إياها (بيريكو) في (البوديغا).

- سأعود إليك بعد اصطياد السردين، وسأحتفظ بنصيبي ونصيبك من الثلج، على أن نقتسم ذلك في صباح الغد. وعندما أعود، حدثني عن أخبار البيسول.

obeikandl.com

- إن فريق (الينكي) لا يعرف الخسارة أبدا.
- ولكني أخشى هنود (كليفلاند).
- عليك أن تثق في (الينكي) يا ولدي، وفكر في (ديماجيو) العظيم.
- إني أخشى نمور(دترويت) وهنود (كليفلاند) معا.
- كن على بينة من أمرك، وإلا خشيت حتى من (حمر سنسناتي) و(الجوارب البيض لشيكاغو) .
- فكر في الأمر مليا، وأخبرني عندما أعود.
- ترى، هل علينا أن نشتري ورقة يانصيب تنتهي بالرقم خمسة وثمانين؟ بحلول الغد، سنكون قد أنهينا خمسة وثمانين يوما.
- بإمكاننا أن نفعل ذلك
قال الغلام:
- ولكن، ماذا عن سبعة وثمانين، يوم تحطيمك الرقم القياسي؟
- إن ذلك لن يتكرر ثانية، ترى، هل بمقدورك أن تحصل على ورقة يانصيب تحتوي على الرقم خمسة وثمانين؟
- سأشتري واحدة.
- ولكن ثمن ورقة يانصيب واحدة دولاران ونصف، ومن بإمكانه أن يقرضنا ذلك؟
- لا عليك، أستطيع أن أقترض هذا المبلغ وقتما أشاء.
- أرى أنه بإمكاني أن أفعل ذلك أيضا، ولكني لا أحبذ ذلك؛ فذلك الأمر سيجعلنا عرضة للإذلال.
ثم أردف الغلام قائلا:
- التحف جيدا أيها الشيخ، وتذكر أننا في شهر سبتمبر.
قال الشيخ:
- إنه الشهر الذي تأتي فيه الحيتان الكبيرة، أما في شهر مايو، فبإمكان كل واحد أن يكون صيادا.
قال الغلام:
- سأذهب الآن للبحث عن السردين.

obeikandl.com

وعندما رجع الغلام وقت الأصيل، وجد الشيخ مستلقيا على كرسي وقد غرق في نوم عميق، فأخذ لحافا عسكريا قديما من مرقده فغطى به كتفي الشيخ؛ كانتا غريبتين غرابة صاحبهما، قويتين برغم شيخوخته، أما عنقه فما يزال قويا، رسمت عليه السنون تجاعيد كثيرة، تجاعيد سرعان ما تختفي عندما ينام الشيخ ورأسه متدل إلى الأمام؛ أما قميصه، فيشبه شراع قاربه برقعه الكثيرة؛ شراع عفت عليه السنون، ولفحته أشعة الشمس فتلاشت ألوانه إلى أطياف ألوان. أما رأسه فقد اشتعل شيبا. ويزداد الشيخ شيخوخة حين يغمض عينيه، فيصير وجهه ميتا لا حياة فيه.

كان الشيخ حافي القدمين، وفوق ركبتيه صحيفة منعها ثقل ذراعيه من أن تذهب في مهب نسمات الليل.

عندما عاد الغلام، وجد الشيخ في مكانه غارقا في نوم عميق.

قال الغلام واضعا يده على إحدى ركبتي الشيخ:

- استيقظ أيها الشيخ.

فتح الشيخ عينيه هنيهة ليرجع من رحلة بعيدة في ذكرياته الغابرة، ثم ابتسم قائلا:

- ماذا أحضرت؟

أجاب الغلام:

- أحضرت العشاء وسنتناوله.

- إني لست جائعا.

- هيا، تناول الطعام، لا يمكنك أن تصطاد دون أن تأكل.

أجاب الشيخ وهو يطوي الصحيفة؛ ثم بدأ في طي الغطاء:

- تعودت على ذلك.

فأجابه الغلام قائلا:

- دع الغطاء على كتفيك، لن تذهب لتصيد ما لم تأكل.

فدعا له الشيخ بالعمر المديد والصحة والعافية، ثم سأله:

- ماذا نحن آكلون؟
- الفاصوليا السوداء، والأرز، والموز المقلي، وبعض اللحم المطبوخ.

جاء الغلام بالطعام من السطيحة في وعاءين معدنيين. وحمل معه سكينين وشوكتين وملعقتين ولف كل سكين وشوكة وملعقة في منديل من ورق.

- من أعطاك هذا؟
- مارتن، صاحب المطعم.
- علي أن أشكره.

قال الغلام:

- لقد شكرته.

فأضاف الشيخ قائلا:

- لا داعي لشكره، سأعطيه لحم بطن سمكة كبيرة.

ثم تساءل قائلا:

- هل سبق له أن أعطانا هذا أكثر من مرة؟
- أظن ذلك.
- علي إذن أن أعطيه شيئا أكثر من لحم البطن، إنه مهتم بنا كثيرا.
- إنه أرسل إلينا أيضا زجاجتين من الجعة.
- إني أحب الجعة في الوعاء المعدني.
- أعرف ذلك، ولكنها جعة في قارورتين، وسأعيدهما إليه عند شربهما.

فقال الشيخ:

- ما ألطفك! هيا بنا نأكل.

قال الغلام بلطف:

- كنت سأدعوك، فلم أكن أرغب في فتح إناء الطعام، حتى تكون راغبا في الأكل.
- إني راغب الآن، لحظات أغسل فيها، وألحق بك.

ثم تساءل الغلام:

obeikandl.com

- أين سيغسل الشيخ؟ فهناك مسيرة شارعين حتى يصل إلى صنبور الماء في القرية. كان علي أن أحضر له الماء والصابون ومنشفة. إني مهمل حقا، وكان علي أن أحضر له قميصا، ولباسا شتويا وحذاء ولحافا آخر.

قال الشيخ:

- إن لحمك المطبوخ هذا لذيذ.

فسأله الغلام:

- حدثني عن البيسبول؟

أجاب الشيخ بسرور:

- لقد فاز فريق الينكي في عصبة المباراة الأمريكية، وهو ما تنبأت به.

- ولكنهم خسروا مباراة اليوم.

- هذا لا يعني شيئا؛ فديماجيو العظيم قد استعاد أمجاده.

- ولكن للفريق غيره من الأبطال.

- نعم، هذا صحيح، ولكن ديماجيو هو الفريق. أما في الفرق الأخرى، بين (بروكلين) و(فيلاديلفيا)، فإني أميل إلى (بروكلين)، ولكن سرعان ما أفكر في (ديك سيسلر)، وتلك الضربات الرائعة في الملعب القديم.

- لم يسبق لي أن رأيت أحدا مثله في حياتي، إنه يضرب الكرة إلى حد بعيد.

- هل تتذكر تلك الأيام التي كان يتردد فيها على السطيحة؟ لقد أحببت أن يصحبني في رحلة صيد، إلا أن الحياء منعني أن أسأله ذلك، ثم سألتك أن تدعوه، ولكنك استحييت أيضا.

- إنه خطأ فادح، فقد كان بالإمكان أن يرافقنا، ولو تم ذلك لكانت ذكرى عزيزة من ذكرياتنا.

قال الشيخ:

- وددت لو اصطحبت معي ديماجيو العظيم في رحلة صيد. يحكى أن أباه كان صيادا، وربما كان فقيرا مثلنا، وهذا يُسَهل تفاهمنا واندماجنا.

- أما أبو سسلر العظيم، فلم يكن قط فقيرا، فقد كان يلعب في أكبر

obeikandl.com

فريق.
- عندما كنت في مثل سنك، كنت وراء السارية في مركب شراعي يجوب شواطئ إفريقيا، هناك رأيت الأسود على الشواطئ عند الغروب.
- أعلم ذلك، لقد سبق لك أن أخبرتني.
- هل تفضل الحديث عن أفريقيا، أم عن البيسبول؟
أجاب الغلام:
- البيسبول. حدثني عن (جون) العظيم.
- كان من عادته أن يتردد على السطيحة؛ كان جافيا، نابي الكلام، غليظ الطبع عندما يكون ثملا، كان شغوفا بلعب البيسبول، وسباق الخيل، حتى إنك ترى جيوبه مليئة بلوائح أسماء الخيول؛ فقد كان دائم الحديث عنها في كل مكالمة هاتفية.
- كان المدبر الأول لفريقه.
قال الغلام:
- بل إن أبي كان يعتبره أعظمهم.
- لأنه كان يأتي هنا باستمرار.
قال الشيخ:
- ولو كان (دورتشر) أيضا يتردد على السطيحة كل سنة، لاعتبره والدك من العظماء المدبرين.
- قل لي بصراحة، من هو المدبر الكفء، (لوك) أم (مايك كونزلز)؟
- أعتقد أنهما متساويان.
- أما أحسن الصيادين، فمن تراه غيرك؟
- لست الأحسن، هناك أناس آخرون.
قال الغلام:
- هناك صيادون مهرة، وهم كثر، ولكنك فريد من نوعك.
- شكرا لك يا ولدي، لقد أدخلت السرور على قلبي، وأرجو أن لا نصادف سمكة ضخمة تثبت عجزي، فأكون عندها على غير ما ظننت.
- لا أظن أن هناك سمكة قادرة على فعل ذلك، ما دمت قويا كما

تقول.

أجاب الشيخ:

- لا أظنني قويا كما تتصور.

- عفوا، ولكنني أعرف حيلا كثيرة، وأنعم بعزيمة لا ينضب معينها.

- هيا، قم إلى مضجعك الآن كي تستريح، لتكون في الصباح الباكر على أحسن ما يرام؛ أما الأغراض، فسأحملها إلى السطيحة.

- عمت مساء، سأوقظك في الصباح الباكر.

قال الغلام:

- إنك ساعتي المنبهة.

فأجاب الشيخ:

- الشيخوخة هي ساعتي المنبهة يا ولدي، ولكن لماذا يستيقظ الشيوخ مبكرا؟ هل يفعلون ذلك لكسب يوم أطول؟

أجاب الغلام:

- لا أعرف، كل ما أعرفه أن الأطفال ينامون متأخرين.

أجاب الشيخ:

- نعم، باستطاعتي أن أتذكر ذلك، ولكن لا عليك، سأوقظك في الوقت المحدد.

- لم أكن أحب أن يوقظني معلمي في الصباح الباكر، فذلك يجعلني أحس أنني أقل شأنا من.

- أعرف ذلك.

- عمت مساء أيها الشيخ الكريم.

خرج الغلام، بعد أن تناول مع الشيخ طعام العشاء، تحت جنح الظلام، وفي الظلام الدامس، تسلل الشيخ إلى مرقده، وخلع سرواله، ولفه بأوراق الجرائد، فجعل منه وسادة تقي رأسه قساوة الأرض، ثم افترش ما تبقى من أوراق الصحف والتحف بلحاف يقيه البرد.

لم يمر إلا وقت قصير حتى استسلم الشيخ لنوم عميق، حمله في

obeikandl.com

رحلة أحلام إلى أفريقيا، فتذكر أيام الصبا التي جاب فيها الشواطئ الذهبية البيضاء، بياضا ولمعانا يكادان يخطفان الأبصار؛ كما وتعمق في رحلة الأحلام على الخلجان المرتفعة، والجبال السمراء الشاهقة، كانت هذه الشطآن المكان المفضل الذي يزوره الشيخ كل ليلة في منامه، هناك يسمع هدير الأمواج العاتية، ويرى قوارب الزنوج وهم يمتطون صهوتها، ويشتم رائحة القطران والحبال العتيقة. وتنتهي الرحلة بانتهاء الليل وإشراق الصبح الذي يحمل مع نسيمه رائحة أفريقيا.

من عادة الشيخ أن يصحو عند هبوب نسيم الصباح. ولكن نسيم الأرض هذه الليلة جاء مبكرا على غير عادته، فعلم الشيخ أن رحلة الأحلام لم تكتمل بعد، فراح يجوب قمم الجزر البيضاء، وموانئ جزر الكناري ومراسي سفنها.

لقد مر وقت طويل لم يحلم الشيخ فيه بالعواصف والنساء والأحداث الجسام والأسماك الكبيرة والحروب، بل لم يحلم حتى بزوجته، يحلم فقط بالشطآن، والأسود التي تمرح وتنشط فيها، وهي كالقطط تتداعب وقت الغروب. كان الشيخ يحب تلك الأشبال كما كان يحب الغلام الذي لم يحلم به قط.

حل الصبح، فاستيقظ الشيخ، ونظر إلى القمر الذي تسلل نوره من الباب المفتوح، ثم ارتدى سرواله وخرج من الكوخ لقضاء حاجته، وبعدها تابع طريقه لإيقاظ الغلام وهو يرتعش من برد الصباح الباكر؛ فارتعاشه سيجلب له الدفء، وأن حاله لن يدوم طويلا؛ فسرعان ما سيجدف بقاربه صوب عرض البحر.

كان باب المنزل الذي يقطنه الغلام غير موصد. فتح الشيخ الباب، فدخل حافي القدمين في هدوء وصمت، والغلام نائم على أريكة في

مدخل الغرفة، استهدى الشيخ لرؤيته بضوء القمر الباهت الذي بدأ يحتضر. ثم أمسك بإحدى قدمي الغلام برفق ليوقظه، ثم التفت الغلام ونظر إليه، فأومأ الشيخ إليه وحياه، ثم أخذ الغلام سرواله من فوق الكرسي، فجلس على السرير يرتديه.

خرج الشيخ فتبعه الغلام والنوم لا يفارق أجفانه. وضع الشيخ يديه على كتفي الغلام فقال له:

- أنا آسف لإيقاظك مبكرا.

فأجابه الغلام:

- لا عليك، هكذا همة الرجال تكون.

مشيا في الظلام الدامس إلى كوخ الشيخ، وعلى طول الطريق، هناك رجال حفاة الأقدام يحملون سرايا قواربهم.

وعندما وصلا إلى الكوخ، حمل الغلام الشباك والحربون، وحمل الشيخ على كتفيه السارية والشراع المطوي.

سأله الغلام:

- هل تريد فنجان قهوة؟

- لنضع الأدوات أولا في المركب، ثم نذهب لشرب القهوة.

سأله الغلام وقد تخلص من النوم الذي أبى أن يفارق جفنيه.:

- كيف قضيت ليلتك البارحة أيها الشيخ؟

أجاب الشيخ:

- بخير يا منولين، وإني اليوم في أحسن حال.

- وأنا كذلك، علي الآن أن آتيك بالطعوم والسردين. إن معلمي يحمل الأدوات بنفسه، ولا يسمح لأحد أن يحمل معه شيئا.

أجاب الشيخ:

- إنه ليس مثلي، ولقد كنت أسمح لك بفعل ذلك، وأنت في الخامسة من عمرك.

- أذكر ذلك، سأعود حالا، خذ فنجان قهوة آخر، بإمكاننا أن نستدين.

مضى الغلام حافي القدمين فوق الصخور المرجانية نحو مستودع الثلج

obeikandl.com

الذي تُخزن فيه الطعوم، وجلس الشيخ يحتسي قهوته في هدوء، كان في أمس الحاجة إليها، وربما تكون كل ما يتناوله اليوم؛ فقد مل الأكل مع تقدمه في العمر، ولم يعد يتزود به، زاده قارورة ماء في مقدمة المركب، هذا كل ما سيحتاجه في يومه.

عاد الغلام بالسردين وطُعْمين ملفوفين في ورق صحيفة، فانطلقا نحو القارب وهما حافيي القدمين يمشيان على الرمل، فرفعا القارب لينساب في الماء باحثا عن رزقه.

-"حظ سعيد أيها الشيخ".

-"حظ سعيد يا ولدي".

شد الشيخ رباط المجدافين إلى الوتدين، فاندفع القارب خارج مرسى السفن شاقا طريقه في مياه البحر. وراح يجدف في الظلام الدامس. لم يكن وحيدا في مسعاه، بل كان البحر يعج بقوارب أخرى، لم يتمكن الشيخ من رؤيتها لغياب القمر وراء الروابي، وإنما تحسس وجودها من أصوات المجاديف وهي تصارع المياه بحثا عن المجهول.

ووسط عتمة الظلام، خيم الهدوء إلا من أصوات المجاديف، وكلمات من حين لآخر. وما إن غادرت المراكب مرسى السفن، حتى انتشرت في عرض البحر وأصحابها كلهم أمل في صيد وفير.

ترك الشيخ وراءه عبير الثرى، وراح يجدف مستنشقا رائحة البحر الزكية. وبينما هو في منطقة يدعوها الصيادون (البئر الكبيرة)، تراءى له الوميض الفوسفوري لطحالب البحر. هناك في أعماق سبعمائة قامة تجتمع أصناف السمك - بفعل التيار الدائري الذي يصطدم بأهوال قاع المحيط- كسمك القريدس والسردين. وفي بعض الأحيان، تجتمع أسراب من السبيدج في الثقوب العميقة التي تصعد ليلا إلى السطح فتكون غذاء لذيذا للأسماك التائهة.

وفي الظلام الدامس، تحسس الشيخ طلوع الفجر. وبينما هو يجدف، سمع أصوات سرب من السمك يتطاير فوق الماء، وحفيف أجنحتها القوية وهي تحلق في عتمة الظلام. كان الشيخ مغرما برؤية الأسماك المتطايرة فوق الماء. لقد كانت شريكة وحدته القاسية في عرض البحر. كان يأسف كثيرا للطيور، كطائر الخرشنة الداكن الهزيل الذي لا يتوانى في التحليق بحثا عن فريسته، والذي قلما يجد ما يقتات به. وجال في خاطر الشيخ قائلا:

- إن حياة الطيور أشق من حياتنا باستثناء الكواسر والطيور القوية. لماذا خلقت هذه الطيور نحيفة هزيلة، وخلق البحر قاسيا وحشيا؟ إنه لطيف وجميل، ولكن قد يصبح قاسيا وحشيا في لمح البصر. إن هذه الطيور الهزيلة بأصواتها الحزينة، أرق من أن تتحمل حياة البحر القاسية.

كان الشيخ وحيدا بالبحر، وكان يسميه (لمار) وهي الطريقة التي يعبر بها الإسبان عن عشقهم للبحر؛ فكان منهم من يذمه في بعض الأحيان، إلا أن حديثهم عنه هو حديث عن امرأة. أما بعض الصيادين الشباب - أيام كانت أكباد سمك القرش تباع بأسعار مرتفعة، زودوا قواربهم بمحركات آلية، واستخدموا الطافيات التي تطفو بها شباكهم- فيتحدثون عن البحر بالمذكر لا بالمؤنث. إنهم ينظرون إليه نظرة منافس أو ينظرون إليه كمكان يربحون فيه، بل كعدو لدود. أما الشيخ، فالبحر عنده كامرأة تهبك المنح الجليلة، أو تحجبها عنك، ولكن إن بدا منه شر أو أذى فتلك عادته. إن القمر يُفقده صوابَه، كما تفقد المرأة صوابها أحيانا؛ هذا ما يعتقده الشيخ.

راح الشيخ يجدف في عزيمة، لم يشعر بأي تعب، ولم يجهد نفسه في التجديف. أما صفحة الماء فهادئة إلا من بعض الدوامات التي يحدثها التيار من وقت لآخر لأخرى. ومن حسن حظ الشيخ، أنه كان يجدف

في اتجاه التيار فيدفع به إلى الأمام مما يختزل به ثلث الجهد المبذول. حين انجلى الصبح، تبين للشيخ أنه قطع أشواطا لم يكن ليقطعها في مثل هذه الساعة. "

- لقد جربت حظي في الأعماق السحيقة مدة أسبوع كامل فلم أظفر بشيء. أما اليوم، فسأراهن على أماكن أسراب التونة والسقمري، لعلي أظفر بسمكة كبيرة تائهة وسط هذه الأسراب.

هذا ما كان يجول في خاطره.

وقبل طلوع الصبح، رمى الشيخ صناراته، وراح يجدف في اتجاه التيار. كان الطعم الأول على عمق أربعين قامة، والثاني على بعد خمس وسبعين، أما الثالث والرابع، فكانا في الماء الأزرق، على عمق مائة، ومائة وخمس وعشرين قامة. يتجه رأس كل طعم إلى الأسفل، وساق الصنارة في داخل سمكة الطعم، مشدودة ومربوطة بإحكام. أما الجزء البارز من رأس وقوس الصنارة، فكانا مكسوين بالسردين الطازج، وقد أحكم ربط كل سمكة من عينيها، فبدت إكليلا فوق الفولاذ الناتئ. لم يبق مكان شاغرا في الصنارة لا تنبعث منه رائحة عذبة، ولا يحتوي على طعم لذيذ، يستهوي ما يحلم به الشيخ، وما هو مغامر من أجله: سمكة كبيرة تغنيه وتسد فقره وحاجته.

كان الغلام قد أعطى الشيخ سمكتين طريتين إحداهما من نوع التونة والأخرى من نوع السقمري، فوضعهما طعمين على حبلين يشبهان الريشة وألقى بهما في البحر. أما الحبلان الآخران، فوضع عليهما قطعتين: إحداهما زرقاء من سمك العداء والأخرى صفراء من سمك سليمان، كانتا طعمين من قبل، فعادتا دون فائدة، ولكن ما زالتا تحتفظان بطراوة تنضاف إلى رائحة السردين الطازج، ليكونا طعمين مثيرين لسمكة كبيرة طالما تمناها الشيخ المثابر. كان سُمك كل حبل في سُمك قلم الرصاص، وقد رُبط إلى قضيب يانع أخضر. أية لمسة أو

أي جذب للطعم يدفع بالقضيب إلى الغوص في الماء. كل حبل يحتوي على لفتين، طول إحداهما أربعون قدما، وهما مثبتتان بإحكام إلى باقي اللفات الاحتياطية. وهكذا يكون الشيخ قد وفر ثلاثمائة قامة من الحبال، وقد يكون في أمس الحاجة إليها عندما تقع في شباكه سمكة كبيرة طالما حلم بها.

بدأ الشيخ يراقب القضبان الثلاثة عن كثب، وراح يجدف بهدوء؛ هدوء يحافظ به على عمق الحبال في الماء. وبدأ ضوء الشمس يلوح في الأفق بعد أن توارت عتمة الظلام.

بدت الشمس محتشمة وهي تشرق من وراء البحر، فبدت للشيخ مجموعة من القوارب على مقربة من الشاطئ، وهي منتشرة على صفحة مياه البحر.

سطعت الشمس، وانعكست أشعتها على مياه البحر لتنعكس على عيني الشيخ، كان ذلك يؤلمه كثيرا في عينيه فيغمضهما مجدفا دون النظر إليها. نظر إلى الماء يراقب مواقع الحبال؛ فله من الحنكة ما ليس لغيره. في كل عمق من الأعماق المظلمة، وضع الشيخ طعما يأمل أن يكون شركا لسمكة كبيرة تمر عبر تلك الأعماق. أما الصيادون الآخرون، ولقلة خبرتهم، فيتركون الطعوم يعبث بها التيار، ويحسبونها على عمق المائة قامة وهي لا تتجاوز الستين.

وبدأ الشيخ يحدث نفسه قائلا:

-أما أنا، فأرمي حبالي بدقة متناهية، وكل ما في الأمر أن الحظ ليس حليفي، ولكن من يدري؟ ربما سأكون محظوظا اليوم؛ فكل يوم هو يوم جديد، ومن الخير أن تكون محظوظا من أن لا تكون، ولكن علي أن أكون مستعدا، حتى إذا جاء الحظ وجدني متأهبا له.

مرت الآن ساعتان على شروق الشمس، ولم تعد أشعتها تؤذي عيني

الشيخ كثيرا. نظر جهة المشرق، فلم ير غير ثلاثة قوارب على مقربة من الشاطئ.

ثم حدث نفسه:

- لقد أَلِفت عيناي أذى الشمس وقت شروقها طيلة حياتي، ورغم ذلك فما تزال عيناي على أحسن حال. وفي الغروب، أستطيع أن أنظر إلى الشمس دون أن أستشعر ظلمة في عيني، وبالرغم من أنها تكون في الغروب أقوى، إلا أنها تكون في الصبيحة قوية.

نظر الشيخ إلى طائر ذي جناحين كبيرين سوداوين يحوم في السماء، وفجأة، انحدر مائلا بجناحيه إلى الوراء، ثم عاود التحليق مرة أخرى.

صاح الشيخ قائلا:

- إنه لا يستكشف فقط، بل هو عثر على شيء ما.

ثم راح يجدف بحذر وهدوء نحو المكان الذي حلق فيه الطائر. لم يكن الشيخ مسرعا في تجديفه حتى يحافظ على استقامة حباله، ثم قاد قاربه في اتجاه التيار مهتديا بالطائر التائه، ولكن سرعة القارب لم تؤثر على الطائر في صيده.

حلق الطائر بعيدا في السماء، ثم عاود الحوم مرة أخرى وجناحاه ساكنان بدون حركة. وفجأة، غاص في البحر، فظهرت للشيخ أسماك تخترق صفحة الماء وهي تبحر في كل مكان. صاح الشيخ قائلا:

- دولفين! إنه دولفين كبير!

أرسى الشيخ مجدافيه، وأخرج صنارة ذات شرك معدني من أسفل مقدم القارب، وخطافا متوسط الحجم، ووضع في الصنارة طعما من سمك السردين وتركها تنساب في البحر، ثم أحكم ربطها بحلقة في مؤخرة المركب، ثم جهز صنارة أخرى بطعم فتركها ملفوفة في ظليلة القارب، ثم عاد إلى التجديف مرة أخرى وهو ينظر إلى الطائر ذي الجناحين السوداوين الكبيرين الذي ما انفك يحلق على مقربة من سطح الماء.

فجأة، انقض الطائر منحرفا بجناحيه ليعود بعدها مرفرفا من غير طائل. وبينما كان الطائر مقتفيا أثر الأسماك الطائرة، أبصر الشيخ ارتفاعا مائيا خلفته الدلافين وهي تتعقب الأسماك الفارة. كانت الدلافين تشق طريقها خلف الأسماك الطائرة لتلتهمها عندما تختفي في الماء. انتشر سرب من الدلافين على مسافة شاسعة، ولا أمل للأسماك الطائرة من النجاة. أما الطائر المسكين فلا نصيب له في هذا السباق المحموم؛ فالأسماك تطير بسرعة فائقة وحجمها يجعل منها فريسة له.

نظر الشيخ إلى سرب الأسماك المتطايرة هنا وهناك، وإلى الطير المسكين وهو يحوم حولها، شاعرا بالعجز أمامها، فلم يظفر منها إلا بما يظفر به العطشان من السراب.

ثم حدث نفسه:

- لقد ابتعد السرب عني. إنه يسبح بعيدا وبسرعة بالغة. ومن أدراك؟ لعلي أظفر بسمكة تائهة، أو إن سمكتي الكبيرة التي أبحرت من أجلها غير بعيدة عن السرب، ومن المؤكد أن تكون في مكان ما هناك.

بدت في الأفق سحب داكنة كالجبال، وبدا الشاطئ ممتدا تكسوه خضرة يانعة وقد أطلت عليه هضاب رمادية تشوبها الزرقة. أما لون الماء، فكان أزرقا داكنا يميل إلى الأرجوانية. وبينما كان الشيخ ينظر إلى المياه الزرقاء الداكنة، حيث أشعة الشمس الغريبة تنعكس على سطح الماء، بدت له العوالق الحمراء الطافية، وراح يرقب حباله وهي تختفي في أعماق البحر بعيدا عن الأنظار، وسره كثيرا أن يرى كثرة العوالق الحمراء؛ إذ وجودها دليلا على وجود أسماك كثيرة. وكان ارتفاع الشمس في كبد السماء ينبئ عن جو جميل، وكذلك كانت أشكال السحب فوق الأرض.

اختفي الطائر تقريبا عن الأنظار، وخلت صفحة الماء إلا من بقع أعشاب السرخس الصفراء، ومن رئة البحر بهلاميتها ولونها الأرجواني وهي تطفو حول القارب، انقلبت على جانبيها لتستقيم، إنها تطفو

مرحة كالفقاعة، تجر ذيلها الأرجواني القاتل الذي يبلغ طوله ياردا واحدة، ثم خاطبها الشيخ قائلا:

- أغوا مالا، اذهبي أيتها العاهرة.

ثم انحنى برفق على المجداف فأمعن النظر في الماء فإذا به يرى سمكا صغيرا ملونا كالأذناب المتدلية، إنها تسبح بين هذه الأذناب وتحت ظل الفقاعات الصغيرة التي تُحدثها عندما تجرفها الرياح. كان هذا السمك الصغير ذا مناعة تقيه السموم، وليس الأمر كذلك بالنسبة للإنسان، فما أن تَعْلق بعض الأذناب بالحبال حتى تترك لزاجتها، وما أن يمسك الشيخ بها محتالا على طريدته حتى تظهر على يديه وذراعيه قروح كالتي يحدثها اللبلاب أو السماق السامان، إلا أن سموم "أغوامالا" خاطفة في إيلامها كالجلد بالسياط.

كانت الفقاقيع جميلة قزحية الألوان، لكنها من أدهى كائنات البحر. كان الشيخ يحب أن يرى السلاحف البحرية وهي تأكل تلك الفقاقيع. رأت السلاحف الفقاقيع فاقتربت منها وأغمضت عيونها كي تقي نفسها وتلتهمها أجسادا وأذنابا. كان الشيخ يحب أن يرى السلاحف البحرية وهي تلتهم رئات البحر، كما كان يعشق المشي فوقها على الشاطئ مستمعا إلى فرقعاتها وهو يدوسها بأخمص قدمه الصلب، كان ذلك يحلو له بعد هدوء العاصفة.

كان الشيخ يحب السلاحف الخضراء والسلاحف البحرية لأناقتها وسرعتها وغلاء ثمنها، ويزدري السلاحف الضخمة البلهاء، سلاحف صفراء دروعها، غليظة رؤوسها، غريبة في جماعها، تلتهم رئات البحر وهي مبتهجة مغمضة العينين.

لم يكن مغرما بصيد السلاحف برغم قضائه سنوات كثيرة في صيدها، إلا أنه كان يشفق على حالها وعلى الضخمة منها خاصة تلك التي تكون بطول القارب ويبلغ وزنها الطن الواحد. معظم الناس لا يشفقون على

السلاحف، فقلبها لا ينقطع عن الخفقان لساعات بعد ذبحها. ثم قال الشيخ محدثا نفسه:

- إن لي قلبا كقلبها، ويدين كيديها ورجلين كرجليها.

كان الشيخ يأكل بيضها الأبيض في شهر مايو ليقوي بها جسده حتى إذا جاء شهر سبتمبر وجد نفسه قويا لاصطياد السمكة الكبيرة.

كان الشيخ يشرب كل يوم كأسا من زيت كبد القرش المخزن في البرميل الكبير في الكوخ حيث يضع الصيادون عدتهم. وُضع البرميل هناك ليشرب منه من أراد من الصيادين، وإن كان أغلبهم يكرهون طعم زيت كبد القرش، إلا أن طعمه ليس أمَر مما يشعرون به وهم يستيقظون في غسق الليل. وبرغم طعم زيت كبد القرش المر، إلا أنه دواء شاف للزكام والأنفلونزا ومقو للبصر.

تطلع الشيخ إلى السماء، فرأى الطير يحوم من جديد فصاح قائلا:

- لقد وجد سمكة!

ولكن، ليست هناك أية أسماك تتطاير، ولا أي طعم متناثر فوق سطح الماء. فجأة، رأى الشيخ تونة صغيرة تطير في الهواء لتستدير هاوية على رأسها فوق سطح الماء؛ وهي تلمع كالفضة تحت أشعة الشمس. وبعد أن غاصت في الماء، تطايرت تونة ثانية، فثالثة، وراحت التونات تقفز في كل الجهات قفزات طويلة ماخضة الماء، وهي تلاحق الأسماك الصغيرة مطوقة إياها من كل الجهات.

قال الشيخ في نفسه:

- لو لم تسرع هذه الأسماك للحقت بها.

ثم نظر إلى سرب من الأسماك وهو يجتاز زبد البحر. فجأة، هوى الطائر فغاص ليصطاد الأسماك الصغيرة المذعورة المجتمعة فوق سطح الماء. ثم أضاف:

- لقد كان هذا الطائر عونا لي في ما أعانيه.

في تلك اللحظة توتر خيط الصنارة تحت قدمه حيث عروة الخيط،

فطرح مجدافيه جانبا، وأحس بثقل سمكة التونة المرتعشة وهو يمسك خيط الصنارة بإحكام، ثم بدأ يجذب السمكة. وبينما هو يجذبها إليه، تزايد ارتعاشها، فبدا ظهرها الأزرق وجانباها الذهبيان فوق سطح الماء قبل أن يقذف بها إلى داخل القارب. تمددت سمكة في مؤخرة القارب تحت أشعة الشمس، كانت مدورة الشكل وعيناها الكبيرتان الغبيتان تحملقان. وراحت تضرب قعر المركب بذيلها الرشيق ضربات متتالية. ورأفة بها، ضربها الشيخ على رأسها، ورماها إلى الظليلة في مؤخرة القارب وجسدها ما يزال يرتعش.

صاح الشيخ:

- إنها سقمرية! إنها تصلح أن تكون طُعما أصطاد به، إنها تزن عشرة أرطال!

لم يتذكر الشيخ أول مرة تحدث فيها إلى نفسه بصوت عال؛ ففي الأيام الخالية، كان يغني عندما يكون وحيدا، وفي بعض الحالات كان يغني ليلا وهو يقود مراكب صيد السمك أو قوارب صيد السلاحف، ولعله بدأ يكلم نفسه بصوت عال عندما غادره الطفل وبقي وحيدا. لم يعد يتذكر ذلك، كان لا يتكلم إلا لضرورة عندما كان الطفل رفيقه في رحلة الصيد; أما وقت حديثهما، فكان في الليل أو عندما يكون الجو عاصفا يمنعهما من الإبحار. لقد كانت قلة الكلام أثناء الصيد عادة احترمها الشيخ وعمل على تطبيقها. أما الآن، فهو يكلم نفسه بصوت عال؛ فهو وحيد وليس بجانبه من يزعجه.

ثم صاح قائلا:

- لو سمعني الآخرون أكلم نفسي وأنا وحيد، لظنوا أني أحمق... ما دمت غير ذلك، فلا أبالي، إن الأغنياء لديهم أجهزة الراديو في قواربهم ترافقهم وتحمل إليهم أخبار البيسبول. ليس هناك الآن وقت للتفكير في البيسبول؛ إنه وقت التفكير في شيء واحد، الشيء الذي ولدت من أجله. قد تكون هناك سمكة كبيرة تتربص بذلك السرب الذي اصطدت

منه سقمرية واحدة تأخرت عنه، إنه ينطلق بعيدا وبسرعة فائقة. كل شيء يبدو اليوم فوق سطح البحر مسرعا نحو الشمال الشرقي، أيكون ذلك شيئا عاديا في مثل هذا الوقت من اليوم، أم تراها أمارة طقس أجهلها؟

وهكذا توارت خضرة الشاطئ عن الأنظار، فلم يعد الشيخ يرى إلا قمم الهضاب الزرقاء المشوبة بالبياض وكأنها مكللة بالثلوج، والسحب التي تبدو وكأنها جبال ثلج عالية، أما البحر فداكن تنكسر عليه أشعة الشمس فتحدث بريقا في الماء، وآلاف العوالق أذابتها أشعة الشمس اللاهبة، ولم يعد الشيخ يرى إلا المواشير التي تخترق المياه الزرقاء وحباله الضاربة نحو ميل في الأعماق.

ها هو سرب التونة قد غاص ثانية في الماء، كان الصيادون يطلقون اسم التونة على جميع ضروب السمك، ولم يميزوا بينها إلا عند البيع أو إعداد الطعوم. كانت الشمس ملتهبة لحفت قفاه، وسال العرق على ظهره وهو يجدف، ثم قال في نفسه:

- بإمكاني أن أترك القارب ينساب فوق الماء لأنام، وأربط عقدة حبل الصيد في إبهام رجلي ليوقظني، ولكن إنه اليوم الخامس والثمانون ولم أفز بعد بصيد ثمين، علي إذا ألا أخلد للراحة.

وبينما كان الشيخ ينظر إلى حباله، رأى أحد العيدان الخضر يغطس فجأة في الماء، ثم ردد قائلا:

- جيد، جيد.

سحب مجدافيه دون أن يلمسا القارب، وأمسك الحبل بيمناه برفق بين السبابة والإبهام، لم يشعر بأي ثقل ولا قوة تجذبه، فأحكم الإمساك، وما هي إلا برهة حتى أحس الشيخ بالحبل ينجذب من بين أصابعه، لم يكن جذبا متينا ولا ثقيلا، فعلم أنها سمكة ضخمة على بعد

مائة قامة تنهش أسماك السردين التي تلف الصنارة والخطاف اليدوي المطل من رأس التونة الصغير.

أمسك الشيخ الحبل برفق بيده اليمنى، وفك وثاقه من رباطه، فانساب الحبل من بين أصابعه دون أن تشعر السمكة بأي توتر، ثم قال في نفسه:

- لابد أن يكون الصيد في مثل هذا الشهر وفي مثل هذا العمق صيدا ثمينا... كلي أيتها السمكة، كلي أسماك السردين، هلا أكلتها! ما أطزجها! ما أحوجك إليها وأنت تسبحين في الماء البارد، في العمق البعيد، وفي عتمة الظلام! على رسلك أيتها السمكة، جُولِي في عتمة الظلام وتعالي مرة أخرى لتأكلي سمك السردين الطازج.

أحس الشيخ بجذبة لينة تلتها جذبة عنيفة لحظة نزع السمكة رأس السردين من الخطاف، ثم هدأ الجذب.

صاح الشيخ بصوت عال:

- جولة أخرى وأنا بانتظارك هنا، شمي رائحة أسماك السردين الطازجة، إنها لذيذة، أليس كذلك؟! كليها وسأعطيك بعدها سمك التونة اللذيذة، كلي أيتها السمكة، لا تخجلي!

ظل الشيخ يرقب حبل الصيد بين إبهامه وأصابعه الأخرى، كما ظل يرقب الحبال الأخرى العائمة في الماء، ومرت وقت قليل حتى عاد الجذب اللين من جديد.

وأقبلت حقا، فصاح الشيخ بصوت عال:

- يا إلهي، إنها ستقع في الشرك!

لم يعد الشيخ يحس بأي جذب، ربما راحت السمكة إلى حال سبيلها. ثم قال:

- لا يمكن أن تكون السمكة ذهبت، الله وحده يعلم مكانها، ربما تكون في جولة لتعود بعدها، أو ربما أخذت حذرها بعد تجربة صيد كادت أن تذهب ضحيتها من قبل.

لم يكمل الشيخ كلامه حتى أحس بجذبة لينة، فانبعث الأمل في قلبه

من جديد، كانت الجذبة اللينة مصدر فرح له، ثم أحس بوزن ثقيل، وزن لا يصدق، إنه وزن السمكة التي طالما راودها لتسقط في حباله، أرخى الشيخ الحبل لينساب بعيدا في الماء، وبينما الحبل ينساب بعيدا من بين أصابعه، أحس بوزن السمكة الثقيل.

ثم قال:

- يا لها من سمكة! لقد علقت الصنارة بفمها وبدأت تتحرك إلى الأمام.

إنها تستدير لتبتلعها. هكذا جال في خاطره. إلا أنه لم يبح بذلك؛ إذ كان يعتقد أن استعجال الشيء يفسده. علم الشيخ أن صيده ثمين، وأن سمكة كبيرة تسبح في عمق المياه الحالكة، وطعم التونة عالق بين فكيها. فجأة، أحس أن السمكة قد توقفت عن الإبحار فتزايد وزنها، فأرخى حبل الصنارة ثم أحكم شده بإبهامه وأصابعه فازداد ثقلها وهي تسبح في الأعماق.

صاح الشيخ:

- لقد وقعت في شركي! الآن سأتركها تستمع بأكل الطعم.

ترك الحبل ينساب بين أصابعه، ثم انحنى باسطا يده اليسرى ليوثق بها طرف اللفتين الاحتياطيتين بعروة لفتين احتياطيتين أخريين.

الآن قد أَعد العدة وتهيأ لمصارعة السمكة الكبيرة؛ فقد أصبح لديه ثلاث وأربعون قامة من الحبال الاحتياطية دون عد الحبل المسدول في أعماق المياه.

قال الشيخ مخاطبا السمكة:

- هيا، كليها واستمتعي بها، كليها وابلعي معها الصنارة، لعلها تكون سببا في موتك، تعالي دون عناء لأغرس فيك حربوني. هل أنت مستعدة؟ هل انتيهت من أكلك اللذيذ؟

ثم صاح:

- الآن!

ثم جذب الحبل بقوة، يمناه تساعد يسراه، ويسراه تساعد يمناه، مرة تلو الأخرى، بكل ما يملك من قوة في يديه وجسمه النحيف، ولكنه لم

يجذب من الحبل إلا يَرْدا واحدة.

لم يتكلل جهد الشيخ بنجاح، وراحت السمكة في هدوء دون أن يتمكن من جذبها ولو إنْشا واحدا. كانت حبال الشيخ قوية معدة لصيد الأسماك الكبيرة. حمل الحبل على ظهره موترا إياه حتى انبعثت منه فقاعات الماء، كان له فحيح كفحيح الأفاعي، ثم استلقى على مقعد التجديف وهو يراقب القارب يشق موج البحر بهدوء نحو الشمال الغربي.

بدأ الشيخ رحلة هادئة في المياه الهادئة ومعه صيده الثمين، وكانت حبال الصيد الأخرى في أعماق المياه تنتظر رزقها.

قال الشيخ:

- ليت الغلام معي! فالسمكة تجرني وها أنذا قد أصبحت ممسك بالحبل جيدا! بإمكاني أن أشد الحبل أكثر، ولكني أخشى انقطاعه. علي أن أمسك الحبل ما استطعت، وأن أرخيه عند الحاجة. شكرا لك يا إلهي، السمكة تبحر إلى الأمام وليس إلى أعماق البحر، ولكن ماذا سأفعل إن غاصت في الأعماق؟ لا أدري، وماذا سأفعل أيضا إن غاصت وقضت نحبها؟ لا أدري، ولكن لا بد من فعل شيء، هناك أشياء كثيرة سأفعلها في حينها.

شد الشيخ الحبل على ظهره وهو يراقب انحرافه في الماء، وقاربه يسير بتؤدة نحو الشمال الغربي، ثم قال:

- إن ذلك سيقتلها، ولا يمكن لها أن تفعل ذلك إلى الأبد.

مضت أربع ساعات ولا تزال السمكة الضخمة تبحر بهدوء في عرض البحر تجر القارب خلفها، أما الشيخ، فلا يزال يقظا حازما وحبال الصيد تلف ظهره، ثم قال:

- لقد اصطدتها في منتصف النهار، ولم أرها بعد.

وضع الشيخ قبعته المصنوعة من القش على رأسه قبل أن يصطاد السمكة، وها هي تؤلمه في جبينه من شدة الضغط، أحس بعطش

شديد، فانحنى على ركبتيه حذرا من أن يهز حبال الصيد، ثم حبا إلى مقدمة القارب، فمد يده إلى قارورة ماء، فتحها ثم شرب قليلا ثم جلس متكئا قرب السارية والشراع يكابد الأوقات العصيبة بعيدا عن أي تفكير.

التفت، فلم ير إلا المياه الزرقاء التي تحجب عنه رؤية اليابسة، ثم قال في نفسه:

- هذا لا يهم، بإمكاني أن أعود مستهديا بأضواء هافانا. ساعتان تفصلنا عن الغروب، ولعل السمكة تصعد فوق سطح الماء قبل مجيء الظلام، وإن لم تفعل، فسيكون ذلك مع بزوغ ضوء القمر، وإن لم تفعل، فسيحدث ذلك مع طلوع الشمس، إنني لا أشكو ألما، وإني بصحة جيدة؛ فالصنارة في فمها وليست في فمي، من تكون تلك السمكة التي تجر قاربي؟ لابد أن الصنارة قد تمكنت منها. يا ليتني رأيتها، ليتني رأيتها مرة واحدة حتى أعرف أي خصم أواجه.

لم تغير السمكة مجراها طوال الليل، عرف الشيخ ذلك من مراقبة النجوم. بعد غروب الشمس، عم برد قارس، فجف عرق الشيخ على ظهره وساعديه ورجليه النحيفتين الهرمتين. كان زاده الذي يتقي به البرد القارس لحافا يغطي به الأكياس في النهار، ويلف به جسده النحيف في الليل.

وبعد الغروب، لف الشيخ اللحاف حول عنقه لينسدل على ظهره، ثم مرره بحرص تحت الحبال المشدودة إلى كتفيه لتخفف عنه ألم حز الحبال، ثم اتكأ إلى الأمام على مقدمة القارب يبحث عن وضع مريح يعينه على كفاحه. لم يكن وضعا مريحا يحسد عليه، لكنه يفي بالغرض المطلوب.

ثم ناجى نفسه قائلا:

- لا حيلة لي معها ولا حيلة لها معي مادامت مختفية عن الأنظار.

وبينما وقف الشيخ على حافة القارب يتبول وهو يرى النجوم مستهديا بها في طريق عودته، بدا له الحبل المتدلي من أعلى كتفيه كأنه شريط فسفوري لامع.

تباطأ إيقاع رحلة الشيخ مع سمكته قليلا، وها هي أضواء هافانا الخافتة تلوح في الأفق. علم الشيخ حينها أن التيار يسير بهما نحو الاتجاه الشرقي ثم قال في نفسه:

- لو غابت عني أضواء هافانا، فسنكون قد أوغلنا في الاتجاه الشرقي، ولو كانت السمكة تجر زورقي على نحو مستقيم، لرأيت أنوار هافانا لساعات أخرى.

ثم تساءل في حنين:

- ليتني عرفت نتائج اليوم لمباريات البيسبول. وليت لي مذياعا أتابع به الأخبار.

ثم استدرك قائلا:

- فكر في صيدك، فكر في ما أنت فاعله الآن، فرب خطأ يكلفك الكثير.

ثم صاح بصوت عال:

- يا ليت الغلام معي، يا ليته معي يساعدني على أمري ويرى ما أكابده!

ثم ناجى نفسه قائلا:

- على الإنسان ألا يبقى وحيدا في شيخوخته، ولكن، هكذا الأيام، علي أن آكل التونة قبل أن تفسد لأستعين بها على ما هو آت... تذكر أيها الشيخ، فعليك أن تأكل التونة في الصباح، تذكر ذلك.

وفي الليل، أتى زوج من الدلافين يحومان حول القارب ينخران ويَثبان، وكان بميسور الشيخ أن يميز بين نخير الدلفين الذكر، ونخير الدلفين الأنثى، ثم قال:

- إنهما يستمتعان ويلعبان ويتداعبان وقد هم بها وهمت به، إنهم إخوة لنا كالأسماك الطائرة.

ثم رق قلب الشيخ للسمكة الكبيرة التي وقعت في شباكه، إنها رائعة

وغريبة. ترى كم عمرها؟ لم يسبق لي قط أن اصطدت سمكة كبيرة قوية غريبة مثلها. إنها لم تشب، لا بد وأنها عاقلة حكيمة، إن لها من القوة ما يدمرني بقفزة واحدة أو رمية واحدة. أو لعلها صيدت من قبل مرات عديدة فاكتسبت فنون القتال والمراوغة. عليها أن تعلم أن الذي اصطادها هو رجل واحد، بل هو شيخ هرم. يا لها من سمكة كبيرة، ولا أدري كم ثمن لحمها في السوق إن كان من النوع الجيد؟ لقد قضمت الطعم قضمة رجل، وتجر جر رجل، وتقاتل بثقة دون ذعر. وإني لأتساءل هل تقاتل عن دربة وخبرة، أم أنها مكلومة يائسة مثلي؟

تذكر الشيخ يوما اصطاد فيه أنثى الدلفين، ومن عادة هذه الأسماك أن يترك الزوج أنثاه تقتات أولا، فلما علق فمها بالصنارة، راحت تحارب مذعورة يائسة حتى خارت قواها، أما زوجها فبقي يحوم حول حبال الصيد غير بعيد عنها حتى ظن الشيخ أنه سيقطع حبل الصيد بذنبه الحاد الذي يشبه المنجل في حجمه وشكله. جذب الشيخ أنثى الدلفين وضربها بمعوله على الرأس ثم رفعها بمساعدة الغلام على ظهر القارب، لم يقدر الدلفين الذكر على فراق أنثاه، فمكث إلى جوار القارب يرقبه. وبينما كان الشيخ ينظف حبال الصيد والحربون، قفز الدلفين الذكر عاليا في السماء يبحث داخل القارب عن أنثاه ثم غاص في الأعماق ناشرا زعانفه الأرجوانية. قال الشيخ:

- ما أجمله من دلفين!

وقد جلس متأملا في الماضي البعيد – ثم أضاف:

- كانت أحزن لحظة في حياتي، أما الغلام فقد رق قلبه لرؤية المشهد، والتمسنا العفو من أنثى الدلفين، وذبحناها على الفور... يا ليت الغلام معي!

قالها الشيخ بصوت مرتفع، ثم جلس على الألواح الخشبية المستديرة في مقدمة القارب يتحسس ثقل السمكة والحبل مربوط إلى كتفيه،

والسمكة تجر الزورق أينما تريد:
- لقد غدرت بها واصطدتها، وعليها الآن أن تقرر. كان اختيارها أن تبقى في أعماق البحر بعيدة عن كل فخ أو مكيدة أو غدر، وكان اختياري أن أركب إليها قارب المغامرة بعيدا عن الناس، بعيدا عن كل الناس، وها نحن وجها لوجه منذ الظهر، ولا من يعينها ولا من يعينني.
ثم قال في نفسه:
- يا ليتني لم أكن صيادا، ولكني ولدت لأكون صيادا. علي أن آكل التونة قبل انبلاج الصبح.

وقبل بزوغ الصبح، أحس الشيخ بشيء يقضم طعم أحد الحبال المتدلية وراءه، وسمع صوت عود ينكسر. بدأ الحبل يتدلى بسرعة من أعلى حافة القارب. سل سكينه وانحنى إلى الخلف ماسكا بالحبل على حافة القارب ليقطعه، وثقل السمكة الكبيرة على كتفه اليسرى، ثم قطع الخيط الأقرب منه، وفي غمرة الظلام، أحكم عقدة حبال اللفيفتين الاحتياطيتين. لقد كان بارعا في عمله؛ فقد وضع قدمه على اللفيفتين لتثبيتهما، ثم أحكم ربط الحبال بيد واحدة، وهكذا أصبح لديه ست لفائف من خيوط احتياطية: اثنتان لكل طعم، واثنتان للطعم الذي صاد به السمكة الكبيرة، فأصبحت كل هذه الحبال حبلا واحدا يعينه على مداراة صيده الثمين.
ثم حدث نفسه قائلا:
- في الصباح، سأقطع الحبل المتدلي إلى أربعين قدما وأربطه باللفائف الاحتياطية. إن فعلت هذا سأخسر مائتي قامة من الحبال الكطلونية الجيدة عدا الصنانير، كل هذا يمكن تعويضه، ولكن من سيعوضني هذا الصيد الثمين إن اصطدت سمكة أخرى تقطع حبل الوصل بيني وبينها؟ لا أدري ما نوع هذه السمكة التي قضمت الطعم الآن. أهي سمكة المرلين أم عريض المنقار، أم القرش؟ لم أجذبها حتى أعرف نوعها، علي أن أتخلص منها الآن و بسرعة.

ثم قال بصوت عال:

- يا ليت الغلام معي... ولكن الغلام ليس معك، إنك وحدك أيها الشيخ، عليك أن ترجع لحبلك الآن واقطعه لينضاف إلى اللفائف الاحتياطية، سواء غمر الظلام الكون أم غمره النور.

فعل الشيخ ذلك، وكان صعبا عليه أن يقوم به في الظلام. فجأة، وثبت السمكة وثبة طرحته على وجهه فجرحت عينه حتى سالت قطرات من الدم على خده لتجف قبل أن تصل إلى ذقنه، ثم رجع إلى مقدم القارب ليتكئ على الألواح، ثم صوب الكيس، وحرك الحبل فوق كتفيه ليريحهما، ثم شد الحبل شدا يتحسس به جذب السمكة، ووضع يده في الماء في عتمة الظلام يقيس زحف القارب، ولكن لماذا وثبت السمكة هذه الوثبة؟ لا بد وأن تكون الصنارة قد انزلقت فوق ظهرها الجبلي. ومهما يكن من أمر، فظهرها لن يؤلمها كما يؤلمني ظهري، ولكن لا يمكنها أن تجر هذا الزورق إلى الأبد مهما كانت ضخمة، إني على أتم الاستعداد، ولدي ما يكفي من الحبال لأقاوم، وهذا كل ما يحتاجه أي صياد.

ثم قال الشيخ بصوت هادئ وكله حزم وثقة بنفسه:

- فلتعلمي أيتها السمكة أنني سأصارعك حتى ألفظ آخر أنفاسي... قطعا، إن السمكة لا تقل حزما عني، وسأنتظرها حتى الصبح.

كان الجو باردا قبيل الصبح، فاحتمى الشيخ بخشب القارب طلبا للدفء، ومع أول إشراقة الصبح، مدد الحبال في الماء، فسطعت تباشير الشمس الأولى على كتفه اليمنى، ثم قال:

- إن السمكة تبحر بنا إلى الشمال، أما التيار فيهب صوب الشرق.

وتمنى الشيخ أن تبحر السمكة صوب الشرق، ولو فعلت ذلك لكان علامة على بداية تعبها.

وبعد أن اكتمل شروق الشمس، بدا للشيخ أن السمكة لم يعترها أي

تعب، أمارة واحدة فقط بعثت الأمل في قلبه، فانحراف الحبل يوحي أن السمكة تبحر في عمق أقل مما كانت عليه. قد لا تكون مستعدة للقفز، ولكن من أدراك؟ فكل شيء ممكن.

ثم قال:

- يا إلهي، دعها تقفز فلدي من الحبال ما يكفي لمواجهتها.

ثم ناجى نفسه:

- لو وترت الحبل قليلا، سيؤذيها ثم تقفز. ولكن، إنه الصبح، دعها تقفز إلى السطح لتَملأ جيوبها المحادية للعمود الفقري بالهواء فيمنعها ذلك عن الغطس ثانية فتموت.

حاول الشيخ زيادة شد الحبال، ولكنها وصلت الحد الذي لو زادت عنه لانقطعت. اتكأ إلى الوراء جاذبا الحبل ثانية دون جدوى، فلم يعد أمامه من متسع لفعل ذلك، ثم قال في نفسه:

- علي أن لا أجذبها ثانية، فجذبة أخرى قد توسع الجرح الذي أحدثته الصنارة ثم تقفز فتنزلق من بين فكيها. ومهما يكن من أمر، فإني مرتاح تحت أشعة الشمس ولو أنني لا أرغب في النظر إليها.

وكانت هناك أعشاب صفراء قد علقت بحبل الصيد فزادت عبئا آخر على السمكة. فرح الشيخ لذلك فرحا شديدا. لقد كانت أعشاب الخليج الصفراء مصدر الضوء الفسفوري طوال الليل، ثم قال:

- أيتها السمكة، إني أحبك كثيرا، وأحترمك كثيرا، ولكني سأقتلك قبل أن ينقضي النهار... أرجو ذلك.

فجأة، لاح في الأفق طائر يتجه نحو القارب من الشمال. كان واحدا من الطيور المغردة التي تحلق على ارتفاع منخفض فوق الماء، وقد بدت عليه أمارات التعب.

حط الطائر على القارب، ثم حام حول رأس الشيخ ليحلو له المقام فوق الحبل. سأل الشيخ الطائر:

- كم مضى من عمرك؟ وهل هذه أول رحلة لك؟

تطلع الطائر إلى الشيخ، وقد بدا عليه التعب، تعب جعله يتمايل

فوق الحبل متشبثا به بقدميه النحيفتين.

قال الشيخ للطائر:

- إن الحبل قوي بل إنه أقوى، كان عليك ألا تكون متعبا بعد ليلة هادئة بلا ريح. ما الذي يدعو الطيور إلى الفرار؟

ثم أضاف قائلا:

- إنها الصقور التي تأتي إلى عرض البحر لتقتنص مثل هذا الطائر المسكين.

كتم الشيخ كثيرا مما جال في خاطره عن الطائر، وعلى كل حال، لن يفهم الطائر شيئا، ولكنه سيفهم ما يكفي من الصقور قريبا... خذ قسطا من الراحة أيها الطائر المسكين، ثم ارحل لتبحث عن رزقك كأي إنسان أو طائر أو سمك.

كان حديث الشيخ مع الطائر تسلية له تنسيه ألم ظهره الذي ألم به طوال الليل والذي ما يزال يؤلمه حتى الآن.

ثم أردف قائلا:

- نزلت ضيفا عندي أيها الطائر، ولكن، وا أسفاه، لا يمكنني رفع شراع قاربي لأحملك فيه مع هبوب هذه النسمات العليلة. إنك صديق لي.

لم يكد الشيخ يكمل كلامه حتى وثبت السمكة وثبة مفاجئة طرحته في مقدم القارب، وكادت ترميه في البحر لولا أن تماسك وأرخى المزيد من الحبال.

طار الطائر مع أول اهتزازة للحبل دون أن يراه الشيخ، وتوارى عن الأنظار. تحسس الشيخ الحبل بيده فألفاها تدمي، ثم قال بصوت مرتفع:

- لقد جُرحت السمكة!

ثم جذب الحبل ليرى إن كان بمقدوره أن يقلبها، وما أن بلغ الحبل غاية توتره حتى كف عن الجذب وانزوى إلى الخلف مقاوما توتر الحبال.

ثم قال يخاطبها:
- إنك تشعرين بألم الجرح، والله يعلم أني أشعر بما تشعرين.
ثم التفت حوله يبحث عن الطائر فلم يجده، فأحس بشوق شديد إلى صحبته، وقال:
- ما بالك لم تطل المقام عندنا، فمقامك هنا أقل قساوة مما ستعانيه حتى تلحق بالشاطئ. ثم تساءل:
- ما الذي جعلني أترك السمكة تجرحني بوثبتها القوية؟ ما أبلدني! أو ربما شغلني ذلك الطائر المسكين، والآن علي أن أكون حذرا، وأن آكل بعض التونة لتكون عونا لي على ما أقاسيه.
ثم قال بصوت مرتفع:
- يا ليت الغلام معي، ويا ليتني جلبت معي بعض الملح!
ثم حول الحبل إلى كتفه اليسرى، وانحنى على ركبتيه يغسل يده الجريحة في مياه المحيط، فأبقى عليها دقيقة تحت الماء يرقبها ويتأمل الدم الذي يسيل منها، والماء الهادئ من حولها، والقارب يبحر في تؤدة.
ثم قال:
- لقد تباطأت السمكة كثيرا.

أحب الشيخ أن يبقي يده في ماء البحر مدة أطول، ولكنه كان متوجسا من وثبة مفاجئة، ثم وقف مستجمعا قواه، يعرض يده الجريحة للشمس. لقد أصاب الجرح راحة يده، وهو في أشد الحاجة إلى يدين سالمتين لمصارعة السمكة، غير أن القدر حل به قبل بداية النزال.
ثم قال بعد أن جفت يده:
- علي الآن أن آكل تونة صغيرة، بإمكاني أن أسحبها بالمحجن دون أن أبرح مكاني المريح.
ثم انحنى فسحب التونة بالخطاف من مؤخرة القارب دون أن يمس حبال الصيد الملتفة، ثم وضعها خلفه، وحمل الحبل على كتفه اليمنى ثانية واتكأ على ساعده الأيمن، فوضع ركبته على السمكة ليقطع منها

شرائح لحم داكنة الحمرة.

قطع الشيخ ست شرائح إسفينية الشكل من العمود الفقري إلى حافة البطن، ثم نشرها على الألواح الخشبية، ومسح سكينه على سرواله، ورفع بقايا التونة من ذيلها ورماها في البحر.

ثم قال:

- لا أستطيع أن آكل سمكة برمتها.

ثم غرس سكينه في شريحة من الشرائح.

أحس الشيخ بثقل في حبل الصنارة، أما يده فتعاني من تشنج عضلي. وحين اشتد ثقل الحبل على يده، نظر إليها نظرة ألم وحسرة وقال:

- أية يد أنت؟ تشنجي إن شئت، تشنجي كمخلبِ كاسرٍ، فما ينفعك ذلك... لا عليك.

ونظر إلى الحبل وهو ينغمس في الماء القاتم وقال:

- إن شرائح التونة ستعينك على تضميد جراحك. لم تخطئ يدي، بل أنا الذي أخطأت، وسأصحب السمكة إلى الأبد. هيا، كل التونة الآن.

أخذ الشيخ قطعة من التونة وحملها إلى فمه وراح يلوكها. كان طعمها لذيذا. وقال في نفسه:

- امضغها جيدا وارتشف عصارتها، ولا شك أنها ستكون ألذ لو أكلتها مع قليل من الحامض أو الليمون أو الملح.

وسأل يده المتشنجة التي أصبحت صلبة صلابة نقر أصم:

- كيف حالك أيتها اليد؟... سآكل شيئا من التونة من أجلك.

أخذ النصف الآخر من شريحة التونة التي قطعها نصفين، ووضعه في فمه فمضغه مضغا ثم لفظ ما تبقى من فضلات التونة:

- كيف تشعرين أيتها اليد الجريحة؟ أو لعل السؤال أتاك مبكرا!

أخذ شريحة أخرى ليمضغها، وحدث نفسه قائلا:

- إنها سمكة قوية مغذية طرية طازجة، وكم كنت محظوظا عندما اصطدتها بدل أن أصطاد دلفينا. إن طعمها لذيذ بَيْد أن طعم الدلافين ألذ.

أما الشيخ، فيميل إلى طعم الدلافين الأقل حلاوة والأكثر تغذية ويكره الحلاوة الزائدة، ثم أضاف:

- ليس الوقت وقت اختيار، علي أن أعانق الزمن بما يحمله في رحمه، يا ليت معي ملحا. لا أدري هل الشمس تفسد ما بقي من الشرائح أم تجففها؟ من الأفضل أن آكل ما تبقى منها وإن كنت غير جوعان. إن السمكة هادئة، علي أن آكل الآن لأستعد لما هو آت.

وقال في نفسه:

- اصبري أيتها اليد، فكل ما أفعله، أفعله من أجلك.

ثم تمنى لو كان بإمكانه إطعام السمكة فقال:

- إنها أختي، وعلي أن أقتلها، علي أن أبقى قويا لأفعل ذلك.

أتى الشيخ على الشرائح كلها، وغرق في تفكير عميق، لم يدم ذلك طويلا، وبعد برهة، وقف منتصب القامة ماسحا يديه في سرواله، وقال:

- الآن، أيتها اليد، دعي الحبل ينساب، سأمسك به بيمناي حتى تُشفَيْ مما أنت فيه، وضع قدمه اليسرى على الحبل الثقيل مكان يده اليسرى، واتكأ إلى الخلف يوازن بجسده جذب الحبال.

ثم قال:

- اشفني يا إلهي مما أصاب يدي من تشنج، فأنا لا أعرف ماذا تدبره السمكة لي، إنها تبدو هادئة وكأنها تتبع خطة مرسومة... ما خطتها يا ترى؟ وما خطتي؟ سأبتدع خطة في حينها، فإن قفزت فوق الماء قتلتها، وإن بقيت في الأعماق، بقيت معها إلى الأبد.

ثم مرر يده المتشنجة على سرواله محركا أصابعه دون جدوى وقال:

- لعلها ترتخي مع بزوغ الشمس، أو عندما يتم هضم لحم التونة. ولكن عندما يجد الجد، أفتحها مهما كلفني الأمر. لا أريد أن أفعل ذلك الآن؛ فأنا أريدها أن تنفتح طواعية، وأن ترجع إلى سالف عهدها. نعم، ظلمتها وكنت السبب فيما ألم بها. أسأت استعمالها في الليل عندما كنت مضطرا إلى فك الحبال وربط بعضها ببعض.

نظر الشيخ إلى البحر، فوجد نفسه وحيدا في ظلمة حالكة لا يرى من

خلالها إلا مواشير الضوء المنعكس على الماء القاتم، والحبل المترامي الأطراف، وتموجات الصمت الغريبة. تجمعت السحب إيذانا بهبوب الريح التجارية، ونظر العجوز أمامه فرأى سربا من البط البري ينحت سواقي على صفحة المياه الزرقاء، ثم سرعان ما يستوي الماء لينحت الإوز سواقي جديدة، فيستوي الماء ثانية، ويدرك الشيخ أنه لم يعد وحيدا في عزلته بل هو وسط مسرح من الأحداث.

ثم تساءل في نفسه:

- لماذا يخشى بعض الصيادين الإبحار في قارب صغير بعيدا عن اليابسة؟ إنهم محقون في الأشهر التي يتقلب فيها الجو، أما الآن، فنحن في أشهر الأعاصير. وبعد هدوء العاصفة يأتي الجو الجميل، وهو أروع ما في السنة على الإطلاق.

باستطاعة الناس أن يلحظوا علامات الإعصار في السماء قبل أيام وهم في البحر. وليس بإمكانهم ذلك وهم على الشاطئ، لأنهم لا يدرون إلى ما ينظرون؛ فالسحب تختلف أشكالها بين اليابسة والبحر. أما الآن، ليس هناك شيء ينبئ بقدوم الأعاصير.

نظر الشيخ إلى السماء فرأى أكواما من السحب المتراكمة وكأنها طبقات من المثلجات اللذيذة. وبعيدا هناك، سحب رقاق تداعب سماء أيلول الجميلة، فقال:

- نسيم عليل، إنه مريح لي، لا لك أنت أيتها السمكة.

ما تزال يده متشنجة، ولكنه بدأ يفك رباطها، ثم ناجى نفسه:

- إني أكره التشنجات، لقد خانتني يدي، إنها خيانة الجسد لجسده، إنه لأمر مذل أن يمرض المرء بالإسهال أو التقيؤ. أما التشنج، فأمر أذل عندما يكون الإنسان وحيدا وسط الأهوال. آه، لو كان الغلام معي ليَدلك يدي! أملي أن تتماثل إلى الشفاء!

فجأة، أحست يمناه بتغير في جذب الحبل قبل أن تلحظ عيناه انحرافه في الماء. وبينما كان الشيخ ينحني على الحبل ضاربا يده اليمنى على فخذه، بدا الحبل يطفو على السطح شيئا فشيئا، وصاح:

- هي السمكة قادمة، هيا أيتها اليد المتشنجة، لقد آن الأوان.

بدأ الحبل يتصاعد في هدوء واطراد، ثم انشقت صفحة المحيط أمام القارب الصغير، لتنبجس منه السمكة التي طالما اشتاق الشيخ لرؤيتها. ظهرت والماء يتدفق من حولها وكأنها طول لا ينتهي. كان جلدها يلمع تحت أشعة الشمس، أما رأسها وظهرها؛ فكانا في لون الأرجوان القاتم، وعلى جانبيها خطوط عريضة كلون الأرجوان الشاحب، أما رمحها فكان طويلا يشبه مضرب البيسبول، ودقيقا حادا كالسيف، وظهرت السمكة فوق سطح الماء لتغوص في هدوء وكأنها غواص ماهر، ورأى الشيخ ذيلها الضخم يهبط في الماء كأنه منجل حاد، وراح الحبل ينجذب بسرعة أكبر.

ثم قال:

- إنها أطول من قاربي بقدمين اثنين.

وتابع الحبل انجذابه بسرعة وانتظام، ولم يظهر على السمكة أي ارتباك. وبيديه، حاول الشيخ مداراة السمكة وهو يشد الحبل باتزان دون بسط ولا إحكام.

كان الشيخ يعرف أنه إذا لم يتحكم في سرعة السمكة؛ فإن بميسورها أن تقطع الحبل وتمضي به.

وناجى نفسه قائلا:

- يا لها من سمكة ضخمة! وعلي أن أنتصر عليها، علي ألا أدعها تعرف قدرها، وألا أدعها تعرف كيف تفلت من شركي. لو كنت مكانها، لبذلت كل ما أستطيع لأعانق حريتي، ولكن شكرا لك يا إلهي! فذكاء السمكة ليس كذكائنا، ولو أنها أقدر منا وأنبل.

لقد سبق للشيخ أن رأى أسماكا ضخمة كثيرة يتجاوز وزن الواحدة منها ألف رطل، وسبق له أن صاد سمكتين كبيرتين من هذا الحجم، ولكنه لم يكن وحيدا؛ أما اليوم، فها هو بعيد عن اليابسة، وحيد يواجه قدره المحتوم. لقد شده القدر إلى أكبر سمكة لم يسبق له أن سمع

بها أو رأى مثلها. أما يده، فما زالت منقبضة كأنها مخلب نسر أطبق على فريسته.

كان الشيخ كله أمل أن تنبسط يده، بل كان له يقين أن تنبسط لتكون عونا لأختها اليمنى.

في هذا المكان من البحر، تآخت السمكة ويداي، فصاروا إخوة ثلاثة:

- أيتها اليد، كفاك تشنجا، فليس هذا وقت ذلك.

أما السمكة فقد خففت من سرعتها، وتابعت رحلتها كالمعتاد.

وتساءل الشيخ:

- لماذا تقفز هذه السمكة من حين لآخر؟ أتراها قفزت لتريني حجمها؟ لقد عرفت الآن كم هي ضخمة وكبيرة. فيا ليتها تعرف من أكون، وعندها ستراني، ستراني ويدي مشلولة. دعها تحسب أنني أقوى، وسأعمل جاهدا لأكون كذلك. آه، لو كنت سمكة بكل ما تملك من قوة! عليها أن تعلم أنها لا تواجه إلا عزيمتي وذكائي.

اتكأ الشيخ على الألواح ليستريح قليلا وهو يقاسي كبده بعزم وشدة؛ أما السمكة فتسبح بهدوء، وأما القارب فيمخر عباب البحر في المياه الداكنة.

ارتفع موج البحر قليلا بهبوب الرياح الشرقية؛ وبحلول الظهر، عادت اليد اليسرى الشيخ لتنعم بالعافية. وقال مخاطبا السمكة:

- عندي أخبار سيئة إليك.

وحَول الحبل فوق الكيس الذي كان يغطي كتفيه.

كان الشيخ في وضع مريح لولا بعض الألم الذي ما يزال يحس به، لكن الرجل أكبر من الألم! بل أكبر من كل شيء!

ثم قال:

- لست متدينا، ولكني سأتوسل ما استطعت، دون كلل ولا ملل، بالآباء المقدسين والعذارى المقدسات لتكون السمكة من حظي. وإني نذرت أن أحج للعذراء إذا ما صدتها، ذاك نذر مني. وبدأ الشيخ يستحضر صلواته، إلا أن التعب أنساه إياها؛ فتعجل في ترددها علها تخرج من

ذاكرة النسيان. لقد وجد الشيخ أن صلاته على مريم العذراء أسهل من صلاته على الأب القديس.

- السلام عليك يا مريم العذراء أيتها المنعوم عليها، الرب معك، مباركة أنت بين النساء، وعيسى ثمرة مباركة من بطنك. أيتها القديسة مريم، أم الإله، صَلي لنا نحن المذنبين ساعة الرحيل. آمين... أيتها العذراء المباركة، صلي لموت هذه السمكة، إنها سمكة رائعة!

انتهى الشيخ من صلاته ليجد نفسه أحسن حالا مما كان عليه، غير أن الألم أبى أن يفارقه، ثم اتكأ على ألواح مقدم القارب، وراح يتحسس أصابع يده المتشنجة.

كان الجو حارا بالرغم من هبوب النسيم العليل من أعالي البحار.

وقال:

- من الأفضل أن أجدد الطعم في الحبل القصير في مؤخرة القارب، وإذا واصلت السمكة سيرها قدما لليلة أخرى، وجدت ما أقتات به؛ أما الماء فلم يبق منه في القارورة إلا جرعات قليلة، وقد لا أجد ما آكله إلا بعض الدلفين، ولو أكلت لحمه طازجا فسيكون مستساغا. وكم وددت أن تحط في قاربي سمكة طائرة هذه الليلة؛ ولكن ليس لدي ضوء يجذبها إلي. ما ألذ الأسماك الطائرة! إنها تؤكل طازجة طرية ولا تحتاج إلى تقطيع. علي الآن أن أستجمع قواي. يا إلهي! لم يخطر ببالي أبدا أنها أضخم مما كنت أتصوره".

ثم أضاف قائلا:

- سأقتلها برغم ضخامتها وروعتها... ليس من العدل قتلها، ولكن، سأريها ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل، وماذا يستطيع الإنسان أن يتحمل.

وأردف قائلا:

- كنت أقول للغلام دوما إنني شيخ غريب، وها هو الوقت قد حان لأثبت كم أنا غريب!

لقد أثبت الشيخ ذلك آلاف المرات من قبل، ولكنه يريد أن يثبت

ذلك الآن، فكل يوم عنده يوم جديد، وما كان عليه أن يفكر فيما مضى وهو مقبل على ما هو آت.

تمنى الشيخ لو كانت السمكة تنام لينام قليلا حتى يحلم بالأسود، ثم أضاف:

- لا أدري لمَ لم يبق في ذاكرتي غير الأسود؟ لا تفكر أيها الشيخ.

ثم حدث نفسه قائلا:

- استرح الآن على الألواح ولا تفكر في أي شيء. إن السمكة تتابع رحلتها؛ أما أنت، فامسك الحبال ولا تجهد نفسك.

انقضت الظهيرة والقارب يبحر في هدوء وانتظام، وسط ريح شرقية تدفع قارب الشيخ برفق فوق أمواج البحر، والحبال تنغرس في ظهره من أثر الجذب.

وعند وقت الأصيل، بدأ الخيط يرتفع مرة أخرى؛ أما السمكة، فتابعت المسير، ولكنها أصبحت أقرب إلى سطح الماء مما كانت عليه. ضربت الشمس بأشعتها على ذراع الشيخ وكتفيه، فعلم أن السمكة قد غيرت وجهتها نحو الشمال الشرقي.

أصبح الآن بمقدور الشيخ، بعد أن صعدت السمكة قليلا إلى السطح، أن يراها تسبح في الماء بزعانفها الأرجوانية؛ زعانف كأجنحة طائر، وذيل منتصب يشق صفحة المياه الداكنة. تساءل الشيخ:

- إن لها عيونا كبيرة... ما حدود رؤيتها يا ترى في تلك الأعماق؟ أما الخيول، فلها عيون صغيرة حادة النظر في الظلام، وقد كنت فيما مضى من شبابي، أرى في الظلام، ولكن ليس في الظلام الدامس. وقُل إن شئتَ، كنتُ أبصر كما تبصر الهررة.

كانت الشمس وحركات أصابعه المنتظمة قد أذهبت عنه التشنج، فأوكل إلى يسراه بعض الحمل الذي كابدته يمناه، ثم حرك عضلات كتفيه ليخفف عنها ألم الحبال التي أثخنت جسده.

ثم صاح قائلا:

- إن كنت لم تتعبي، فأنت حقا سمكة غريبة!

بدأ الليل يلوح في الأفق، وأحس الشيخ بعياء شديد. وليروح عن نفسه، أودع نفسه لأحلام اليقظة فحملته بعيدا عما ينتظره؛ وهكذا راح يفكر في مباريات البيسبول ومنازلة يانيكي نيويورك لنمور ديترويت.

ثم قال في نفسه:

- ها هو اليوم الثاني ينصرم، ولا علم لي بنتائج المباريات، ولكن علي أن أثق في "ديماجيو" العظيم الذي طالما أبلى بلاء حسنا في جميع المباريات بالرغم من ألم الركبة الذي يشكو منه.

ثم سأل الشيخ نفسه:

- ترى كيف هو ألم الركبة؟ لم يسبق لي أن كابدته، أهو كألم الديكة عندما تتصارع؟ لا أظنني أحتمل ذلك الألم، ولا أظنني أحتمل أن تُفقأ عيني كما تُفقأ عيون الديكة في المصارعة. ما أَضعف الإنسان! إنه ضعيف أمام الكواسر والوحوش. يا ليتني كنت ذاك الحيوان الرابض في عتمة الظلام في أعماق البحر.

ثم علا صوته قائلا:

- إلا سمك القرش، لو حل بنا، فليرحمني الله، وليرحم السمكة.

ثم سأل نفسه في صمت:

- هل تعتقد أن "ديماجيو" العظيم يصبر على مصارعة هذه السمكة كما أفعل؟ إني على يقين أنه سيفعل، فهو شاب قوي، ناهيك أن أباه كان صيادا ماهرا، لا أدري هل ما زالت عظمة الركبة تؤلمه؟

ثم أجاب بصوت مرتفع:

- لا أدري، فلم يسبق لي أن ألم بي صداعها.

مع غروب الشمس، وليقوي الشيخ من عزيمته، تذكر أيام الشباب، تذكر تلك الليلة التي قضاها في حانة من حانات الدار البيضاء يلعب لعبة اليد الحديدية مع خصم له من "سينفوكوس"، وكان أقوى رجل في المرفإ، فقد أوتي بسطة في الجسم. قضيا يوما وليلة ومرفقاهما لا يتعديان الخط الذي رسم بالطباشير على الطاولة، وساعداهما منتصبان،

obeikandl.com

وراحتا يديهما متشابكتان. كان كل منهما لا يألو جهدا في لي ذراع الآخر. وتوالت المراهنات على الغالب منهما، وسالت عليهما جموع غفيرة من المرفإ، جموع تروح وتغدو والشيخ ينظر إلى ساعد الزنجي ويده ووجهه تحت مصابيح الكيروسين. أشرف على اللعبة حكام يتناوبون كل أربع ساعات حتى يتمكنوا من النوم قليلا بعد أن قضوا الساعات الثمانية الأولى دون استراحة. وسال الدم من تحت أظافر الرجلين، وتوالت النظرات بينهما، نظرات إلى العيون والسواعد والأيدي. أما المتراهنون، فمنهم من يجلس على الكراسي العالية الملتصقة بالجدران، ومنهم من لم يكف عن الدخول والخروج من القاعة وقد أصابته حمى الرهان، وكلهم يرقبون اللعبة. كانت الجدران الخشبية مطلية بدهان أزرق لامع وقد انعكس عليها ظل ضوء المصابيح، أما ظل الزنجي فقد كان ضخما، ويزداد ضخامة كلما حركت الريح المصابيح.

طوال الليل، تأرجح النصر ذات اليمين وذات الشمال. وراح أنصار الزنجي يسقونه كؤوس "الرام" ويشعلون له السجائر. وبعد أن أُسقي الزنجي كأس خمرة، استجمع قواه، وكاد أن يلوي ذراع الشيخ ثلاث إنشات. لم يكن الشيخ شيخا يومها، بل كان سانتياغو البطل. وسرعان ما استعاد الشيخ توازنه ورفع يده لتستوي من جديد. فامتلأ قلبه عزما أنه سينتصر على الزنجي وهو البطل الرياضي العظيم.

ومع بشائر الصبح، تساءل المتراهنون إن كانت المباراة ستنتهي بالتعادل. وبينما هز الحكم رأسه يؤكد التعادل؛ فار فائر الشيخ وأحكم القبض على يد الزنجي، فراح يلويها شيئا فشيئا حتى بسطها بسطا على الطاولة. كانت مبارة متعبة. بدأت يوم الأحد صباحا ولم تنته إلا صباح الاثنين. ولطولها، طالب بعض المتراهنين الحكم بوقفها وعَد نتيجتها متعادلة؛ وذلك لما حان وقت انصرافهم إلى أعمالهم. فمنهم من كان حمالا لأكياس السكر في المرفإ، ومنهم من كان يعمل في شركة هافانا

للفحم. كانوا يرغبون كلهم في البقاء حتى نهاية المباراة؛ ولكن الشيخ حسم أمرها قبل أن يحين وقت ذهاب الجميع.

بعد انتصار الشيخ، أصبح الجميع ينادونه بالبطل لوقت طويل. وتقررت جولة أخرى بين الشيخ و الزنجي في الربيع المقبل لعل الزنجي يأخذ بثأره هذه المرة. لكن ذلك لم يحدث، إذ انتصر الشيخ بسهولة، وإذ كانت عزيمة الزنجي محبطة بعد الذي جرى. أما المتراهنون، فقد كانوا قلة، وأصبح للشيخ مكانة كبيرة لا يضاهيه فيها أحد. وبعدها، خاض الشيخ عدة مباريات ليتوقف إلى الأبد. كان بمقدوره أن يهزم أي شخص أراد هزيمة شنعاء، لكن ذلك سيكون مؤذيا ليده اليمنى مصدر رزقه.

حاول الشيخ أن يخوض بضع مباريات تدريبية بيده اليسرى، لكنها كانت تخونه دائما، وما كان ليثق بها أبدا.

عاد من أحلام يقظته التي استحضر فيها ذكرياته البعيدة، فوجد يده قد أدفأتها الشمس وزال عنها التشنج، ما لم يصبها برد الليل القارس، وتساءل:

- ترى، ماذا تحمله هذه الليلة من أخبار؟.

مرت طائرة فوق قارب الشيخ وهي تطوي السماء في طريقها إلى ميامي، وقد أذعر ظلها سربا من الأسماك الطائرة.

ثم قال:

- لا بد أن تكون هناك دلافين لوجود هذه الأسماك الطائرة.

تراجع الشيخ قليلا إلى الخلف وجذب الحبل لعله يظفر بمقدار منه، وسرعان ما تبينت له صلابة الحبل وقطرات الماء ترشح منه، وظل القارب يتقدم في هدوء والشيخ يرقب الطائرة حتى توارت عن ناظريه.

ثم تساءل:

- لابد أن يكون ركوب الطائرة غريبا؟ ترى كيف يبدو البحر من ذاك

الارتفاع؟ لاشك أن ركاب الطائرة يستطيعون رؤية الأسماك إن لم تكن الطائرة بعيدة في السماء. كم أود أن أحلق بتؤدة على ارتفاع مائتي قامة كي أرى الأسماك وهي تتطاير مندفعة من الماء؛ ففي زوارق صيد السلاحف، ورغم طول عوارض السارية، كان بإمكاني أن أرى كثيرا من الأسماك تتطاير، وأرى الدلفين الشديد الخضرة مزينا بخطوط وبقع أرجوانية؛ ومن على عوارض السارية، تبدو أسراب الدلافين وهي تسبح، ولكن لماذا تكون أسماك التيار المظلم أرجوانية اللون بما فيها من خطوط وبقع؟ إنه شيء طبيعي أن تبدو الدلافين خضراء لأن لونها ذهبي، أما الخطوط الأرجوانية التي تبدو على جوانبها، فهي تظهر عندما يشتد الجوع بها أو عندما تكون مسرعة. ترى ما الذي يبرز هذا اللون الأرجواني: أهي السرعة أم الغضب؟

قبيل الظلام، وبينما كان قارب الشيخ يمر بجزيرة من أعشاب السرجس وهي تتموج وتتمايل في ماء هادئ، وقع دلفين بحبال الشيخ. لقد رآه من قبل وهو يتطاير في السماء، منحنيا ضاربا بذيله في الهواء، وبعد أن وقع الدلفين في صنارة الشيخ، بدأ يثب من الذعر ذات اليمين وذات الشمال، وكأنه لاعب ماهر في حلبة. تقدم الشيخ إلى مؤخرة القارب وانبطح على الألواح؛ أمسك الحبل الغليظ بيمناه، وجذب الدلفين بيسراه. وبقدمه اليمنى الحافية وطأ على ما جذبه من حبل؛ ثم جذب الدلفين إلى مؤخرة القارب فهوى وهو يتخبط يائسا ذات اليمين وذات الشمال. انحنى الشيخ ورفع السمكة الذهبية ذات البقع الأرجوانية فوق مؤخرة القارب؛ وكانت حركة فكي الدلفين جامحة لتتخلص من الخطاف. راح الدلفين، في حنق، يضرب الألواح الخشبية برأسه وذيله وجسده، إلى أن ضربه الشيخ ضربة قاضية على رأسه الذهبي اللامع، ثم ارتعد الدلفين فلم يتحرك بعدها.

انتزع الشيخ الصنارة من فمه، ثم رمى الحبل ثانية بطعم جديد، وقفل راجعا بخطى وئيدة إلى مقدمة القارب. غسل يده اليسرى ومسحها بسرواله، ثم حول الحبل الثقيل من يمناه إلى يسراه، وغسل يده اليمنى في البحر وهو ينظر إلى الحبل الغليظ المنحرف في الماء، ويرقب شمس الأصيل وهي تغيب وراء المحيط، ثم قال:

- لم يتغير شيء في رحلة السمكة.

لكنه لاحظ، وهو يداعب بيده ماء البحر، أن حركتها قد هدأت.

قال الشيخ:

- سأزيد السمكة حملا آخر تجره، وسأربط المجدافين إلى مؤخرة القارب ليبطئ من سرعتها في الليل. وكما هي مستعدة لليل طويل، فأنا كذلك على أتم الاستعداد.

ثم جال في خاطره:

- من الأفضل تأخير نزع أحشاء الدلفين قليلا حتى يحتفظ بالدم في لحمه... سأنتزع أحشاءه بعد قليل وأربطه فوق المجدافين ليبطئ من سرعة القارب. من الأفضل أن أدع السمكة هادئة في هذا الوقت، فوقت الأصيل يكون أشد وطأة على الأسماك.

عرض الشيخ يده للهواء يجففها، ثم أمسك بالحبل واسترخى إلى الأمام على الألواح الخشبية ليثقل كاهل القارب ما استطاع، وليحمله بعض ما يحتمل من ثقل أو يزيد.

إنني دائم التعلم لفنون الصيد، وما تعلمته جزء يسير على كل حال، ثم تذكر الشيخ أن السمكة لم تأكل شيئا مذ اصطادها، إنها سمكة كبيرة تحتاج إلى طعام كثير. أما أنا فأكلت سمكة التونة كلها، وغدا سآكل الدلفين، ربما سآكل منه شيئا عندما أنظفه، إنه أصعب مضغا من التونة، ولكن لا شيء في الدنيا يدرك بلا تعب.

ثم صاح قائلا:

- كيف حالك أيتها السمكة؟ أما أنا فعلى أتم الاستعداد، تعافت يدي

اليسرى، ولدي من الطعام ما يكفيني يوما وليلة. أما أنت فَجُري القارب.

لم يكن الشيخ بخير كما قال؛ فالحبال الملفوفة على ظهره ما تزال تؤلمه، ألما صار معتادا لديه حتى فقد الثقة بزواله، لم يكن ذلك يقلقه؛ فقد ألَم به ما هو أسوأ من ذلك:

- إن إحدى يدي مخدوشة، والأخرى تعافت من التشنج، ورجلاي سالمتان قويتان، وهذا زادي يعينني على كسب الرهان.

أرخى الليل سدوله على البحر، إنه سبتمبر الذي يعم فيه الظلام سريعا بعد الغروب. استلقى الشيخ على الخشب البالي في مقدمة القارب، وأسلم جسده للراحة ما استطاع إلى أن ظهرت النجوم. لم يكن الشيخ يعرف الجوزاء باسمها، ولكن لما رآها عرفها وعلم أن باقي النجوم في طريقها إلى الظهور، ثم قال:

- إن السمكة صديقتي، لم يسبق لي أن سمعت أو رأيت مثلها، لكن علي أن أقتلها. من حسن حظنا أننا لا نقتل النجوم... تخيل، لو كان على الناس قتل القمر، لما انتظرهم حتى يصلوه، وتخيل، لو كان على الناس قتل الشمس. لقد ولدنا محظوظين.

ثم عاوده الحزن والأسى على السمكة التي لم تأكل شيئا منذ أن وقعت في حباله؛ أما قلبه فلم يضعف أمام إصراره على قتلها، ثم تساءل:

- كم من الناس سيأكلون من لحم هذه السمكة ؟ وهل هم أهل لأكل لحمها؟ لا، وألف لا، لا أحد منهم أهل لأكل لحمها، إنها جليلة.

ثم جال في خاطره أن يكف عن هذه الأسئلة التي تؤرقه، ليسترسل قائلا:

- من حسن حظ الإنسان أن لا يقتل الشمس أو القمر أو النجوم، بل كفاه أن يعيش في البحر على قتل أشقائه من الأسماك، والآن علي أن أفكر في المجداف الذي يبطئ حركة القارب، فله محاسنه ومخاطره:

فإذا وُضع المجداف في مؤخرة القارب فَقَدَ القارب خفته، وسهل على السمكة أن تنجو، وفقدتُ مزيدا من الحبال. إن خفة القارب تطيل آلامي وآلام السمكة، ولكنها تضمن سلامتي؛ فللسمكة سرعة لم تُبن عنها بعد، وكيفما كان، علي أن أخرج أحشاء الدلفين كي لا يفسد، وأن آكل منه شيئا أستقوي به. والآن سأخلد إلى الراحة ساعة؛ فالسمكة مشدود وثاقها، ماضية في خطاها، علي أن أعود إلى مؤخرة القارب لأكمل عملي، وأحسم أمري. هناك سأرقب حركتها وما تبديه من تغيير، فكرة المجاديف فكرة بارعة، والسلامة تقتضي ذلك. إن السمكة ما تزال على حالها، وقد رأيت الصنارة في زاوية من زوايا فمها، وقد أطبقت عليها بفكيها إطباقا محكما. إن العقاب عقاب الجوع لا عقاب الصنارة. إنها أمام خصم لا تفهمه. استرح أيها الشيخ ودع السمكة تفعل ما تشاء، وانتظر مهمتك الآتية.

ظن الشيخ أنه استراح ساعتين والقمر لم يسطع بعد، فلم يكن له ما يهتدي به لمعرفة الوقت، ولم تكن استراحته إلا استراحة محارب، فكتفاه ما تزالان ترزحان تحت ثقل الحبال وجذب السمكة، ثم وضع يده اليسرى على شفير القارب موكلا إليه مصارعة السمكة.

ثم قال في نفسه:

- ما أيسر صيدها لو كان في الحبال فقط، ولكن هزة واحدة منها كفيلة بقطعها. علي أن أخفف جذب السمكة للحبال. وعلى يدي أن تكونا متأهبتين لمد السمكة بالحبال في أي لحظة.

ثم صاح قائلا:

- ولكنك لم ترقد أيها الشيخ بعد؛ فقد مضى نصف يوم وليلة وها هو يوم آخر يمضي ولم ترقد بعد. عليك أن تجد لنفسك سبيلا إلى النوم؛ فالسمكة هادئة، لكنك إن لم تنم، فقدت توازنك!

ثم أضاف قائلا:

- إني صافي الذهن، بل أجدني أصفي ذهنا، صفاء إخوتي النجوم، ومع ذلك علي أن أنام. إن النجوم والشمس والقمر تنام جميعا، وكذلك

البحر ينام عندما تغيب العاصفة وتهدأ الرياح. لا تنس أيها الشيخ أن تنام، وأن تريح جسمك المنهك ساعة، وتأكد من إحكام شد الحبال. والآن، ارجع إلى مؤخرة القارب ونظف الدلفين، وانتبه أيها الشيخ من خطر المجاديف المثبتة في مؤخرة القارب إن كنت تريد أن تنام... بإمكاني أن أتابع الرحلة دون أن أنام، ولكنه أمر خطير.

ثم حبى على يديه ورجليه إلى مؤخرة القارب وكله حذر أن لا يحرك حبال السمكة فيستفزها، لعلها غافية:

- إني لا أريدها أن تنام، عليها أن تجر القارب حتى الموت.

ولما وصل إلى مؤخرة القارب، استدار لتحمل يده اليمنى ثقل الحبال الملفوفة على كتفيه، وأخرج بيده اليسرى السكين من غمده.

كانت النجوم متلألئة، بدا كل شيء حتى الدلفين الممدد على الألواح. غرز الشيخ السكين في رأس الدلفين فسحبه من تحت الصاري، ثم وضع إحدى رجليه عليه فشق بطنه حتى فكه الأسفل، ثم وضع مديته جانبا، فنثر قُصْبَ الدلفين بيده اليمنى مفرغا جوفه وخياشيمه، ثم شق معدته التي كانت ثقيلة تنزلق بين يديه، فوجد في داخلها سمكتين طائرتين ما تزالان غضتين طريتين، فوضعهما جنبا إلى جنب على الألواح، ورمى أحشاء الدلفين في الماء لتغيب في الأعماق مخلفة أثرا فوسفوريا فوق السطح. كان لحم الدلفين باردا أرقش تحت ضوء النجوم، وقد علاه لون رمادي شاحب. وضع الشيخ رجله اليمنى على رأس الدلفين فسلخ إحدى جانبيه ثم قلبه ليسلخ الجانب الآخر، وبعدها، فصل الرأس عن الجسد وشرح لحمه.

رمى الشيخ هيكل الدلفين في الماء ونظر يبحث عن الدوامات، فلم يجد إلا وميضا للهيكل الغارق. استدار الشيخ فوضع السمكتين الطائرتين وسط شريحتين من لحم الدلفين، وأرجع سكينه إلى غمدها، واتجه في هدوء إلى مقدمة القارب. كان ظهره منحنيا وقد أثقلته حبال الصيد الملفوفة على كتفيه ويمناه تحمل شرائح الدلفين.

في مقدمة القارب، نشر الشيخ الشريحتين والسمكتين الطائرتين على الألواح، ثم أمال الحبل قليلا عن عاتقه وهو ممسك له بيده اليسرى ومتكئ على حافة القارب، ثم انحنى يغسل السمكتين الطائرتين في الماء متحسسا سرعة القارب و الماء يلطم راحة يده. أخذ الشيخ ينظر إلى راحة يده والماء يجري من حولها، وقد علقت بها بقايا فسفورية من سلخ جلد الدلفين. كان التيار هادئا، وعندما حك الشيخ يده على خشب القارب تناثرت منها ذرات فسفورية حملها التيار إلى مؤخرة القارب، تساءل الشيخ:

- ترى، هل السمكة متعبة أم تراها خلدت إلى الراحة؟ دعني الآن آكل قليلا من لحم الدلفين، وآخذ قسطا من الراحة، وأغمض جفني إلى حين.

تحت أضواء النجوم والبرد القارس، أكل الشيخ نصف شريحة من لحم الدلفين وسمكة طائرة بعد أن أفرغ أحشاءها وقطع رأسها.

ثم قال:

- ما ألذ لحم الدلفين لو كان مطبوخا! وكم يكون طعمه فاسدا عندما يكون نيئا! لن أخرج ثانية إلى عرض البحر دون أن أتزود بالملح أو الليمون. لو كان لي عقل ثاقب، لسكبت الماء في مقدم القارب، ولكان قد جف تحت شمس النهار، فأحصل على ملح أملح به لحم الدلفين، ومع ذلك فقد مضغته ولم أشعر بغثيان.

بدأت السماء تتلبد جهة الشرق، وبدأت النجوم تختفي الواحدة تلو الأخرى وكأنها تتهاوى في واد سحيق من الغيوم، وسكنت الريح، ثم قال:

- لن يسوء الجو الآن ولا غدا، وإنما بعد ثلاثة أو أربعة أيام، فأعد نفسك أيها الشيخ للنوم واغتنم هدوء السمكة.

ثم حمل الحبل وشده إلى يده اليمنى، وجعل من فخذه سندا لها، ثم انحنى ملقيا بكل ثقله على مقدمة القارب، وزحزح الحبل عن مكانه فوق كتفيه وعانقه بيده اليسرى.

openkandil.com

- إن يمناي تشد الحبل، وإذا ألم بي النوم، وانسل الحبل منها فيسراي ستوقظني. إنه لمتعب لليمنى، ولكنها خلقت للمعاناة. لو نمت نصف ساعة أو أقل لكفاني.

ثم انحنى إلى الأمام منكمشا على الحبل بجسده راميا بثقله على اليد اليمنى، ليستسلم إلى نوم عميق.

لم يحلم الشيخ بالأسود كعادته، بل رأى في منامه سربا من خنازير البحر يغطي ثمانية أميال أو عشرا، كان ذلك في موسم التزاوج، رآها وهي تقفز من سطح الماء عاليا في الهواء لتعود إلى نفس الثقب الذي انبجست منه أولا، ثم رأى نفسه في قرية راقدا في مضجعه. هبت ريح الشمال فأحس ببرد قارس. خَدِرت يد الشيخ، لقد كانت وسادة يتوسدها. وفي الشاطئ الأصفر الطويل، رأى في منامه، وهو في الغسق الأول من الليل، أسدا يتحدر من الأعالي، ثم توالت الأسود. وضع الشيخ ذقنه على لوح مقدمة السفينة التي ألقت مراسيها، وهب نسيم عليل، وبقي الشيخ ينتظر قدوم مزيد من السباع، وقد غمرته سعادة عارمة.

سطع القمر، والشيخ غارق في نوم عميق، والسمكة تجر القارب في هدوء، تجره وهو يشق طريقه في نفق من السحب الكثيفة.

استيقظ الشيخ فزعا، والحبل ينسل من يمناه وقد ألهبها لهيبا، وقبضة يده كادت تلطم وجهه. انفلت الحبل منسلا، وكبحه الشيخ بيمناه ما استطاع، لم تكن يسراه تساعد يمناه لِخَدَرٍ فيها. وأخيرا، وبعد عراك مع الحبل، قبضت يده اليسرى عليه، فاتكأ عليه بظهره لشده لكنه ألهب ظهره. أما يسراه، فقد دميت وهي منهكة تحت وطأة الحبال، تُمِد الحبل بالمزيد. فجأة، اندفعت السمكة من الماء وقفزت عاليا فأحدثت صوتا رهيبا، ثم ارتطمت بالماء، ثم قفزت لتهوي ثانية وثالثة ورابعة، فأصبحت سرعة القارب لا تقل عن سرعة الحبال. أجهد الشيخ نفسه في جذبها ليتحكم فيها، فوجد نفسه مطروحا في مقدم القارب، ووجهه

منغمس في شرائح الدلفين لا يتحرك، قال الشيخ في نفسه:
- هذا ما كنت أتوقعه... وعلي أن أواجه القدر، سأجعلها تدفع الثمن، لا بد أن تدفع الثمن.

لم يعد الشيخ يرى السمكة وهي تقفز في الهواء، بل يسمع فقط صوت ارتطامها بمياه المحيط عندما تثب عاليا لتهوي على صفحة الماء. كانت سرعة الحبال قد تركت جروحا غائرة في يد الشيخ؛ لم تكن المرة الأولى التي تدمي فيها يده، فقد حاول إبعاد الحبل عن راحة يده ما استطاع حتى لا يعمق من جروحه ويؤذي أصابعه، ثم قال:
- لو كان الغلام هنا، لبلل لفائف الحبال، يا ليت الغلام معي، يا ليته معي.

تباطأت سرعة الحبال والشيخ يُمد السمكة بالحبل إنشا إنشا. نهض من مقدمة القارب، ورفع رأسه من شرائح الدلفين التي ارتطمت بها وجنتيه، وجلس على ركبتيه ليستجمع قواه، ثم وقف على قدميه يرخي المزيد من الحبال. انكفأ الشيخ إلى الوراء يتحسس برجله لفائف الحبال التي لا يستطيع رؤيتها بعينه. كانت هناك حبال كثيرة أعدها الشيخ لمغامرته، وعلى السمكة أن تذوق مرارتها وهي تجذبها في الماء، نعم عليها أن تذوق مرارتها.

قفزت السمكة اثنتي عشرة مرة أو يزيد، وقد ملأت جيوب ظهرها بالهواء.
- إن السمكة لن تذهب بعيدا في الأعماق لتموت هناك، فيستعصى علي إخراجها. إنها ستشرع في الحومان، وعلي أن أتدبر أمرها... ما الذي استفزها فجأة؟ أهو الجوع الذي أيأسها؟! أم هو الليل الذي أفزعها؟! قد يكون الخوف ألم بها بغتة، ولكنها كانت هادئة من قبل، قوية صامدة لا تخشى أي شيء. ما أغربها من سمكة! إنها غريبة حقا.
ثم حدث نفسه قائلا:

- كن شجاعا صامدا أيها الشيخ، إنك ممسك بها ولو أنك فقدت حبالا كثيرة، ولكنها لن تلبث أن تحوم.

أمسك الشيخ الحبل بيده اليسرى ولفه حول كتفيه، ثم انحنى واغترف الماء بيده اليمنى ليزيل عن وجهه ما علق به من شرائح الدلفين. خاف الشيخ أن يثير فيه ما علق بوجهه غثيانا فيتقيأ فتخار قواه. وعندما نظف وجهه من تلك الشوائب، مد يده اليمنى من على حافة القارب في الماء يغسلها، فتركها في الماء المالح وهو يرقب تباشير الصبح قبل طلوع الشمس.

ثم قال في نفسه:

- إن السمكة تبحر جهة الشرق، إنها متعبة وتسير مع التيار، إنها على وشك أن تحوم، وعندها سأكون لها بالمرصاد.

أخرج الشيخ يده اليمنى من الماء بعد أن استرخت من ألمها ونظر إليها وخاطبها:

- لا بأس، تحملي إن التحمل من شيم الرجال.

ثم أمسك الحبل بحذر شديد كي لا يلمس جروحه الجديدة، ثم حول ثقل الحبال فوضع يده اليسرى في الماء على الجانب الآخر من القارب، ثم خاطبها قائلا:

- إن ما تتعبين من أجله لن يذهب سدى أيتها اليد، فطالما احتجت لك وكنت دوما غائبة.

ثم تساءل:

- لماذا لم أخلق بيدين قويتين؟ ربما ولدت بهما ولكن الخطأ خطئي، فلم أحسن ترويض تلك اليد الغادرة، ويعلم الله أنه تهيأ لها من الأسباب ما به تتعلم فتصير قوية كأختها. لقد أبلت بلاء حسنا هذه الليلة، ولم تتشنج إلا مرة واحدة، ولو تشنجت مرة أخرى لتركت الحبل يقطعها.

لم يعد ذهن الشيخ صافيا، ففكر أن يمضغ قليلا من لحم الدلفين،

وسرعان ما عدل عن رأيه محدثا نفسه:

- لا رغبة لي في ذلك، فخير لي أن أشعر بدوار في رأسي من أن أتقيأ فأفقد قواي. سأتقيأ شرائح الدلفين إن أكلتها؛ فقد عافتها نفسي لما ارتطم بها وجهي في مقدم القارب، ورغم ذلك سأحتفظ بها، سأحتفظ بها لوقت الحاجة.

ثم خاطب نفسه:

- ما أبلهك من شيخ! كُلْ ما تبقى لك من الأسماك الطائرة، فقبل الرماية تملأ الكنائن.

السمكة الطائرة هنا، منظفة جاهزة، أخذها الشيخ بيده، فمضغها بعناية، ثم أكلها برمتها وعرق عظامها.

كان الشيخ يعتقد أن السمكة الطائرة مغذية أكثر من الأسماك الأخرى. فقد أعطته القوة التي يحتاجها، ثم حدث نفسه قائلا:

- لقد فعلت ما استطعت، ليتها تحوم، وليت النزال بدأ.

بدأت السمكة تحوم عند طلوع الشمس، إنه اليوم الثالث الذي تشرق فيه الشمس على الشيخ وهو يصارع الأمواج العاتية.

كان الحبل منحرفا، ولم يستطع الشيخ أن يرى السمكة وهي تحوم. كان من المبكر أن يراها، ولكنه أحس بتراخ في توتر الحبل فبدأ يجذبه بيده اليمنى جذبا هادئا.

حرك الشيخ الحبل، فلما بلغ مداه، طاوعه الشيخ مرة أخرى كي لا ينقطع، ثم أزاحه عن كتفيه ورأسه، وبدأ يجذبه بهدوء بيديه، تارة ذات اليمين، وتارة ذات الشمال، يساعده في ذلك جسمه ورجلاه. كانت كتفاه وساقاه الهرمتان كالرحى تنتظم عليها حركة يديه المتموجتين، ثم قال:

- إن السمكة تدور، يا لها من دورة كبيرة!

لم يعد الحبل يطاوع الشيخ، فأمسك به، ومن شدة توتره سالت منه قطرات بدت متلألئة تحت أشعة الشمس. وبدأت السمكة تجذب

الحبل ثانية، وانحنى الشيخ ينظر إليه نظرة مهزوم وهو يتوارى في الماء الحالك.

ثم قال:

- إنها الآن تحوم حومة كبيرة، ما علي إلا أن أمسك الحبل ما استطعت، إن إحكامي شد الحبل سيقصر من حومها كل مرة، ويجعلها تقترب مني شيئا فشيئا، وأظنني سأراها في ساعة، علي أن أنتصر عليها، علي أن أقتلها.

واصلت السمكة حومها ببطء والشيخ يتصبب عرقا. وبعد ساعتين، أحس بعياء شديد، وبدأ حومها يتضاءل، وأومأت انحناءة الحبل أن السمكة تعلو إلى سطح الماء شيئا فشيئا.

ها هي ساعة تمضي، أحس الشيخ فيها بقروح سمراء على عينيه، والعرق المالح يتساقط عليهما وقد ملح الجروح الموجودة تحت عينيه وفوق جبينه. لم يكن الشيخ يهاب تلك القروح السوداء التي كانت أمارات تعب من جذب الحبال. ثم أحس بوهن ودوار فأقلقه ذلك كثيرا، فقال:

- لن أهزم نفسي بنفسي، وأموت ضعيفا مهزوما أمام هذه السمكة، لقد تعبت كثيرا من أجلها، واقتربت من الفوز بها. أعنني يا إلهي، وارزقني الصبر والأناة. سأصلي للأب القديس ومريم العذراء مائة مرة، سأصلي ولكن ليس الآن.

ثم تمثل في نفسه يرددها، ووعد بأنه سيفعل ذلك عندما يجد متسعا. فجأة، أحس الشيخ بهزة عنيفة في الحبل الذي يمسكه بيديه، لقد كانت رجفة حادة قوية.

ثم قال في نفسه:

- إنها تضرب الصنارة برمحها، وكان لا بد أن يحدث ذلك، بل عليها أن تفعله. إنها ستثب ثانية، وكم وددت أن تبقى تحوم. إنها مجبرة على الوثب لتأخذ أنفاسها، فقد تزيد كل وثبة من عمق جرح الصنارة، فيتسع الجرح وتذهب إلى غير رجعة، ثم قال:

- لا تثبي أيتها السمكة، لا تثبي.

أخذت السمكة تحرك رأسها بقوة، وتضرب الصنارة مرات ومرات، والشيخ يرخي لها مزيدا من الحبال. ثم قال في نفسه:

- علي أن أتحمل آلامها، أما أنا فلا أبالي، قد أتحمل آلامي، أما آلامها فقد تفقدها الصواب.

وبعد وقت قصير، توقفت السمكة عن ضرب الصنارة، وبدأت تحوم في هدوء والشيخ يسترجع حباله. أحس الشيخ بدوار في رأسه، فاغترف ماء البحر بيمناه وصبه على رأسه ثم صب المزيد ليدلك قفاه، ثم قال:

- إني لا أشكو من أي تشنج، وستصعد السمكة فوق سطح الماء قريبا، وإني أستطيع الصمود؛ بل عليك أن تصمد أيها الشيخ، ولا تتحدث عن ذلك ثانية.

انحنى الشيخ على مقدم القارب برهة من الزمن، وأزاح الحبل عن ظهره، ثم قال:

- إن السمكة تحوم، علي الآن أن أستريح لأكون لها بالمرصاد عندما تدنو مني.

كان من المغري جدا أن يستريح الشيخ في مقدم القارب ويدع السمكة تحوم دون أن يستعيد شيئا من الحبال. ولكن، ما أن أظْهَرت قوة الجذب أن السمكة في طريقها نحو القارب حتى وقف الشيخ على قدميه يجذب الحبل وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ليكسب المزيد من الحبال.

أحس بتعب شديد فقال:

- إني متعب جدا، ولم يسبق لي قط أن أحسست بمثل هذا التعب في حياتي. ها هي الريح التجارية تهب؛ ستجرفها الرياح في طريقها. ما أحوجني لذلك... سأستريح عندما تذهب السمكة بعيدا لتحوم، إنني أحس الآن بخير، وفي دورتين أو ثلاثة، ستكون السمكة في قبضتي.

كانت قبعته المصنوعة من القش مدلاة على قفاه. وعندما استدارت

السمكة، جذبت الحبل فطرحت الشيخ على الألواح الخشبية في مقدم القارب.

ثم حدث نفسه مخاطبا السمكة:

- إنك تسعين للتخلص مني، ولكني سأجهز عليك عندما تستديرين.

ارتفع ماء البحر، لكن هبوب الرياح ظل معتدلا. كان الشيخ في أمس الحاجة إلى هذه الرياح لتحمله في رحلة العودة، ثم قال:

- سأقود القارب نحو الجنوب الغربي، إن المرء لا يتيه في عرض البحر، ثم إن الجزيرة طويلة الشطآن.

وأخيرا، بدت السمكة تحوم حومة ثالثة، لقد رآها كظل طويل قاتم أسود يمر تحت القارب، لم يكن الشيخ ليصدق أنه يراها بمثل هذا الطول. فأردف قائلا:

- لا، لا يمكن أن تكون بهذا الحجم والطول، ولكنها كذلك، ضخمة طويلة.

أنهت السمكة حومتها وظهرت على سطح الماء، وأصبحت لا تبعد عن قارب الشيخ إلا بثلاثين ياردة فقط. رأى ذيلها وهو يخرج من الماء؛ ذيل أعلى من شفرة منجل كبير وهو يمخر عباب البحر، لونه خزامي باهت، وهو يعلو زرقة المياه الداكنة.

رأى الشيخ حجم السمكة الضخم والخطوط الأرجوانية التي تزركش جسدها وهي تسبح تحت سطح الماء. كانت زعانفها الظهرية مائلة إلى الأسفل، وزعانفها الصدرية واسعة الامتداد.

وبينما هي تحوم، رأى الشيخ عينيها وسمكتين رماديتين تسبحان حولها، تارة إلى جانبها، وتارة بعيدا عنها، وتارة في ظلها. كان طول كل واحدة منها يزيد على ثلاثة أقدام.

بدأ الشيخ يتصبب عرقا، لا من أثر الشمس، ولكن من جر الحبال، فعند كل حومة هادئة، يسترجع الشيخ المزيد من الحبال، ويعلم أنه يقترب منها شيئا فشيئا، وفي حومتين سيحظى الشيخ بفرصة طعنها

بالحربون.

ثم حدث نفسه:

- علي أن لا أطعنها حتى تقترب مني كثيرا، كثيرا، كثيرا، علي أن لا أطعنها في رأسها، علي أن أطعنها في قلبها. كن قويا، هادئا أيها الشيخ.

في الحومة التالية، بدا ظهر السمكة فوق سطح الماء بعيدا عن القارب. وفي الحومة التي تلتها، بدا ظهرها بعيدا ومرتفعا عن سطح الماء، وعلم الشيخ أن بجره لمزيد من الحبال تصبح السمكة في متناوله.

كان الشيخ قد أعد الحربون، ووضع لفة الحبال الخفيفة في السلة المستديرة، وربطها بالعمود في مقدمة القارب.

بدت السمكة وهي تحوم بهدوء، لا يتحرك منها إلا ذيلها. كم كان منظرها جميلا يبهر العين! جذبها الشيخ بكل قواه لتقترب منه، وفجأة، استدارت واستقامت وبدأت حومة أخرى. قال الشيخ:

- لقد جذبتها، لقد جذبتها!

ثم أحس بدوار في رأسه، لكنه ظل متمسكا بالحبل ما استطاع، باذلا أقصى قواه. ثم قال في نفسه:

- لقد جذبتها، ومن أدراك؟ ربما تكون هذه السمكة من نصيبي هذه المرة.

ثم نادى قائلا:

- يا يداي اجذبتا، ويا رجلاي انتصبتا، ويا عقلي أعِني ولا تفارقني. إن السمكة من نصيبي، وإني لمنتصر عليها.

بذل الشيخ أقصى قواه، وجذب الحبل لتقترب منه السمكة، استدارت ثم استقامت وسبحت بعيدا عنه، ثم صاح:

- إنك مقتولة أيتها السمكة، وإني لقاتلك، وهل تودين قتلي أيضا؟!... لن يحدث شيء ما دمنا على هذه الحال.

وكان حلقه قد جف، وشفتاه قد ابيضتا من العطش، ولم يتمكن من مد يده ليرتشف جرعة ماء، كما لم يعد يقدر على الكلام. ثم حدث نفسه قائلا:

- علي أن أجذب السمكة هذه المرة، فلم أعد أقوى على الانتظار، نعم إنك قادر، بل إنك لقادر إلى الأبد.

وفي حومتها التالية على القارب، كاد الشيخ أن ينال منها، ولكن سرعان ما استقامت وأبحرت وابتعدت عنه بهدوء، ثم قال:

- إنك تقتلينني أيتها السمكة، ومن حقك أن تقتليني، لم أر سمكة أعظم منك، ولا أجمل منك، ولا أهدأ منك، ولا أشرف منك. أختي، تعالي، اقتليني، فأنا لا أبالي، من سيقتل من؟

ثم ناجى نفسه:

- إنك مضطرب الذهن أيها الشيخ، كن صافي الذهن، كن صافي الذهن، وتعلم كيف تعاني كإنسان أو تعلم كيف تعاني كتلك السمكة.

قال بصوت لا يكاد يصل إلى أذنيه:

- اصف يا ذهني، اصف يا ذهني.

حامت السمكة مرتين متتاليتين وتكرر المشهد نفسه، وناجى الشيخ نفسه قائلا وقد كان على وشك الانهيار:

- لست أدري، لست أدري، ولكني سأحاول مرة أخرى.

استدارت السمكة، وحاول الشيخ مرة أخرى أن يستجمع ما تبقى من قواه المنهارة، ولكن السمكة سرعان ما استدارت وابتعدت عن القارب في هدوء وهي تلوح بذيلها في السماء.

ثم عقد العزم أن يحاول مرة أخرى وقد دب الوهن في يديه، ولم تعد عيناه تبصران إلا لماما.

حاول الشيخ مرة أخرى، دون جدوى، وهَن وضُعف، ولكنه لم يستسلم، بل أصر على الصمود.

استجمع الشيخ كل آلامه، وما تبقى من قوته، ومن عزة نفسه، وتذكر ما مضى من أيامه، أيام العز والشباب والشجاعة. استحضر ذلك كله وهو ينظر إلى السمكة السجينة. اقتربت من القارب وكاد أنفها يلمس ألواحه، كانت طويلة، عريضة، فضية، مزركشة بالأرجوان، لا متناهية.

طرح الشيخ الحبل على الألواح، ووضع رجله عليه، ثم رفع الحربون

عاليا ما استطاع، صوبه ورماه بكل ما أوتي من جهد وقوة؛ فأصاب به جنب السمكة خلف زعنفة الصدر الكبرى الممتدة في الهواء، طولها شارف صدر الشيخ أو يزيد. أحس الشيخ بسنان الحربون يخترق السمكة، فانحنى عليه مكملا غرسه ، ملقيا بكل ثقله عليه.

عادت السمكة إلى الحياة وهي تحمل الموت في أحشائها، وثبت وثبة عالية فوق سطح الماء تعرض فيها طولها وعرضها وقوتها وجمالها، بدت وكأنها معلقة في الهواء فوق القارب، ثم هوت في البحر فتطاير الماء على الشيخ وقاربه.

أحس الشيخ بوهن في جسده ودوار في رأسه، ولم تعد عيناه قادرتين على الإبصار. فك الشيخ وثاق الحربون فانزلق ببطء بين يديه السليختين. ولما رجع إلى الشيخ بصره، رأى السمكة مستلقية على ظهرها، وبطنها الفضي إلى السماء. كان سنان الحربون قد أصاب زاوية كتفها، فسالت دماء قلبها لتلون مياه البحر الزرقاء. بدت تلك الدماء وهي منتشرة مسافة ميل كأنها مياه ضحلة، وسرعان ما انتشرت كسحابة سوداء؛ أما السمكة فبدت هادئة تتلاعب بها الأمواج. ثم اتكأ الشيخ على ألواح مقدم القارب وقال:

- لا تفقد صوابك، فأنا شيخ متعب وقد قتلت أختي السمكة، وهاأنذا صرت عبدا أخدمها. علَي الآن أن أهيئ العقد والحبال لربطها، ولو كنا اثنين لأخرجناها من اليم وحملناها في القارب، تلك أمنية لأن الغلام ليس معي، والقارب لا يستطيع حملها. علَي أن أعد كل شيء لأربطها إلى القارب، علي أن أنصب السارية، وأثبت الشراع لرحلة العودة.

شرع الشيخ في جذب السمكة لتقترب منه حتى يربطها إلى جانب القارب، ثم أدخل الحبل في خياشيمها وأخرجه من فمها وربط رأسها إلى مقدم القارب ثم حدث نفسه قائلا:

- أريد أن أراها، أريد أن ألمسها، أريد أن أحس بها، إنها ثروتي، لم أقتلها لأنها ثروتي، بل لأنني أحسست بقلبها وأنا أطعنها بسنان الحربون. علي الآن أن أسحبها وأحكم وثاقها. علي أن أضع عقدة حول ذيلها

وأخرى حول بطنها وأن أشدها شدا إلى القارب.

ثم أضاف وهو يشرب جرعة ماء:

- هيا إلى العمل أيها الشيخ، لقد انتهت المعركة وأمامك عمل شاق كثير.

رفع بصره إلى السماء، ونظر إلى السمكة، وتأمل الشمس بعناية، ثم ناجى نفسه:

- ها هي الريح التجارية تهب، ووقت الظهيرة لم يحن بعد، وهذه الحبال أمامي لم تعد ذات بال، وبعد عودتي إلى المنزل، سأَرأبُها وسيساعدني الغلام على ذلك.

ثم نادى السمكة قائلا:

- تعالي أيتها السمكة!

ولكن السمكة لم تأت؛ فلا حياة لمن تنادي. إنها ترقد فوق الماء، تتلاعب بها الأمواج.

جذب الشيخ القارب نحو السمكة، ولما اقترب رأسها من مقدمة القارب، لم يصدق الشيخ ضخامتها. مرر حبل الحربون من الكابح إلى خياشيمها ففكيها، ثم لف الحبل حول رمحها، ومرر الحبل ثانية من خيشومها فلفه حول بطنها، وعقد الحبال وربطها إلى الكابح في مقدمة القارب. ثم قطع ما تبقى من الحبل وربط به الذيل. أما لون السمكة فأصبح فضيا خالصا بعد أن كان فضيا أرجوانيا، أما خطوطها وذيلها فبقيا على لونهما البنفسجي الباهت. كانت تلك الخطوط أعرض من يد الشيخ وهي ممدودة الأصابع، أما عيناها، وهما ساكنتان، فكانتا كمرايا منظار بحري، أو كراهب في قُداس.

ثم قال:

- إنها الطريقة الوحيدة لقتلها.

أحس الشيخ أنه في أحسن الأحوال؛ فقد أنبأه البحر أنها لن تفلت من يده.

- إنها تزيد على ألف وخمسمائة رطل، وربما قد تزيد، فإذا نثرت قُصْبَها سيبقى منها الثلثان، وكل رطل بثلاثين سنتا... إنني أحتاج إلى قلم لحساب هذا، فذهني لا يحتمل. إن دي ماجيو العظيم سيفتخر اليوم بي. إنني لا أشكو أية وعكة، أشكو ألم الظهر واليدين فقط، لست أدري ما الوعكة؟ ... ربما قد أشكو منها ولكنني لا أعرفها.

ربط الشيخ السمكة إلى مقدم القارب ومؤخرته كما ربطها إلى مقعد التجديف. كانت السمكة ضخمة وكبيرة، تبدو كقارب كبير مربوط إلى قارب الشيخ، وقطع حبلا فربط به فكها الأسفل إلى أنفها كي لا ينفتح فمها فيعيق سير القارب، ثم نصب السارية، وبالعصا التي كانت محجنه نشر الشراع، ثم اتكأ في مؤخرة القارب مبحرا نحو الجنوب الغربي.

لم يكن الشيخ يحتاج إلى بوصلة تدله على الجهات. كل ما يحتاج إليه: الريح التجارية والشراع، ثم ناجى نفسه قائلا:

- يحسن بي أن أربط ملعقة إلى صنارة في حبل صغير أرميه في البحر لعلي أصطاد ما أقتات به، ثم أشرب لأروي عطشي.

لكن الشيخ لم يجد الملعقة، وكان ما تبقى من سمك السردين قد فسد.

وبينما القارب يبحر، أخذ محجنه واقتلع به بعض أعشاب الخليج الصفراء، ثم هزها فتساقط منها سمك القريدس على ألواح القارب. كان عددها يزيد على اثنتي عشرة سمكة وهي تقفز لتضرب بعضها بعضا كبراغيت الرمال. أخذ الشيخ يفصل رأسها عن جسدها بإبهامه وسبابته وراح يلوكها بأصدافها وأذنابها. كانت صغيرة جدا، ولكنها مغذية وذات طعم لذيذ. أما الماء فبقي منه في القارورة جرعتان. ارتشف الشيخ جرعة بعد أكله سمك القريدس. ورغم التيار المضاد، قاد الشيخ قاربه والدفة تحت ذراعه. كان السير مريحا. قبل أن يصطاد الشيخ السمكة، وعلى مشارف انتهاء المعركة، أحس بإعياء شديد ودوار

في الرأس، فاعتقد أنه في رحلة أحلام، وسرعان ما نظر إلى صيده الثمين وإلى يديه، وتحسس ظهره المتكئ على مؤخرة القارب فعرف أنه في يقظة من أمره؛ فقد رأى السمكة تثب في الهواء جثة هامدة، فأدرك أن شيئا غريبا يحدث ولا يمكن تصديقه، كانت رؤيته ضعيفة، أما الآن فقد عاد إليه نور عينيه كما كان.

لم يكن ذلك حلما؛ فها هي السمكة تحت ناظريه، ولم يكن ظهره ويداه حلما، بل حقيقة ومصدر ألم، ثم ناجى نفسه:

- إن يداي ستشفيان سريعا، سأطهرهما من الدماء وأغسلهما بمياه البحر المالحة، إن مياه الخليج الداكنة خير ما تندمل به الجراح؛ علي أن أبقى متيقظا، هذا كل ما علي فعله، فيداي أنجزتا المهمة على أكمل وجه، وهاهما تجدفان الآن، وبفمها المغلق وذيلها المستقيم رحنا نبحر سويا كأخوين.

ثم بدأ الشيخ يتساءل وقد انتابته مشاعر الحيرة:

- من يجر من؟ لو كنت أجرها خلفي ما سألت، ولو كانت في القارب وقد راحت هيبتها ما سألت أيضا.

ولكنهما كانا يبحران جنبا إلى جنب، ثم ناجى نفسه قائلا:

- فلتجرني إن كان ذاك يطيب لها، فأنا أفضلها بالحيل لا غير، وهي لم تكن لتؤذيني.

وبينما القارب يشق طريقه نحو اليابس، غطس الشيخ يديه في مياه البحر المالحة لتندمل جراحه، وكانت هناك طخارير وقزع في السماء، فعلم الشيخ أن الريح ستهب طوال الليل.

وظل يرقب سمكته ليتيقن أن صيده ليس حلما بل حقيقة؛ ولكن لذة النظر لم تدم طويلا إذ انبجس قرش من أعماق البحر يهاجمه. لم يكن القرش هناك صدفة، لقد جذبته سحابة الدم الدكناء المنتشرة في أعماق ميل من مياه البحر. اقتفي القرش أثر السمكة فانبجس بسرعة مذهلة، وبدون حذر، شق المياه الزرقاء ليهوي في البحر. شم القرش

رائحة الدم فراح يتعقب السمكة الضخمة وقارب الشيخ. كان القرش يضل الأثر من حين لآخر، ولكن سرعان ما يشم الرائحة من جديد فيقتفي أثر السمكة، ثم يسبح متعقبا إياها في سباق محموم.

كان قرشا كبيرا من نوع "الماكو"، لم يكن من بين مخلوقات البحر من هو أسرع منه. كل شيء فيه جميل إلا فكيه، ظهره أزرق كسياف البحر، وبطنه فضي، وجلده ناعم أخاذ. كان شبيها بسياف البحر حين يسبح إلا في فكيه الكبيرين وهما مطبقان. أما زعنفته الظهرية فتشق صفحة الماء بلا اهتزاز. ووراء فكيه المطبقين تصطف أسنانه الثمانية المائلة إلى الداخل، حادة كمخالب الكواسر، ولم تكن هرمية كباقي أسماك القرش، كان طول الواحدة منها كطول أصبع الشيخ، حادة الجانبين كالموسى، وكأن هذا القرش خلق ليقتات على أسماك البحر كلها، خلق مسلحا يصول ويجول بلا أعداء. وبعد أن شم رائحة الدم، انطلق كالسهم يعدو وزعنفته الظهرية الزرقاء تشق صفحة الماء. وعندما رآه الشيخ مقبلا، علم أنه قرش لا يخشى أحدا، وأنه سيفعل ما يحلو له. وبينما القرش يتجه صوب القارب، أعد الشيخ الحربون وربط الحبل. كان الحبل قصيرا، فقد اقتطع الشيخ منه جزءا ربط به السمكة إلى القارب.

كان الشيخ صافي الذهن، وكله عزم وإصرار، إلا أن آماله كانت ضعيفة، ثم حدث نفسه قائلا:

- علي أن أصمد.

ألقى نظرة على السمكة الضخمة والقرش يقترب منها ثم قال:

- قد يكون هذا حلما، فأنا لا أستطيع مواجهته، ولكن قد أستطيع التغلب عليه.

ثم دعا عليه قائلا:

- ثكلتك أمك أيها القرش اللعين.

اقترب القرش من مؤخرة القارب، وهاجم السمكة، فرأى الشيخ فمه المفتوح، وعينيه الغريبتين، وسمع اصطكاك أسنانه وهي تنهش اللحم

المحادي لذيل السمكة. بل إنه سمع لحمها وجلدها يتمزقان. أصبح رأس القرش باديا فوق سطح الماء، وظهره يتصاعد. فطعنه بحربونه بين عينيه، على الخط المنحدر إلى أنفه. لم تكن هناك في الواقع خطوط، كل ما هنالك رأس ضخم حاد ثقيل أزرق، وعينان كبيرتان، وفكان نهمان لابتلاع كل شيء. لقد أصاب الشيخ دماغ القرش، فقد طعنه بيديه الداميتين، موجها إليه حربونه بكل قواه، طعنه طعنة بلا أمل، طعنة حقد دفين وعزيمة صلبة. انقلب القرش على جنبه، ورأى الشيخ عينيه هامدتين لا حياة فيهما، ثم انقلب ثانية ليلتف في الحبال فأدرك الشيخ حينها أن القرش قد فارق الحياة. لم يتقبل القرش موته بهذه البساطة، فاستلقى على ظهره يلطم الماء بذيله وفكاه تصطكان. ووثب فوق الماء كأنه قارب من قوارب السباق، ولطم بذيله سطح الماء فعلت رغوة بيضاء. ثلاثة أرباع جسمه بدت فوق الماء عندما توتر الحبل، أما الحبل فقد ارتعش قبل أن تنفصم عراه. طفح القرش جثة هامدة فوق سطح الماء. وبعد هنيهة، بدأ يغوص في الأعماق بهدوء تحت نظرات الشيخ، ثم صاح:

- لقد التهم من سمكتي أربعين رطلا من اللحم، وأخذ معه حربوني وحبالي، وها هي سمكتي تدمي، ودمها سيجلب مزيدا من القروش.

لم يرق للشيخ أن يرى السمكة وقد التهم القرش مؤخرتها، كانت عضته في جسمها كأنها عضة تلتهم جسده.

ثم قال:

- لقد قتلت القرش الذي هاجم سمكتي، ويعلم الله كم من القروش الضخمة رأيت؛ فلم يسبق لي أن رأيت أكبر منه. جميل أن يدوم هذا النصر، ولكن، يا ليته كان حلما، ويا ليتني لم أصطد السمكة، ويا ليتني وحيدا على فراشي على كومة الجرائد العتيقة.

وسرعان ما استرد عزيمته وقال:

- لم يخلق الإنسان للهزيمة، خلق الإنسان ليموت لا ليهزم، وإني أشعر بالأسى لأني قتلت السمكة. بدأ وقت المتاعب يلوح في الأفق: فقدت

حربوني، وسمك القرش متوحش، قوي، ذكي؛ ولكني أذكى منه، وربما قد لا أكون، وربما كنت أقوى سلاحا منه لا غير.

ثم صاح:

- دع عنك هذا ولا تفكر فيه، وأبحر فلكل حادث حديث، ولكن علي أن أفكر، فهذا كل ما تبقى لي، بقي لي التفكير والبيسبول. ترى كيف سيشعر "ديماجيو" العظيم لو رآني أطعن القرش في رأسه؟ لم يكن ما فعلته عظيما، فبإمكان كل شخص أن يفعل ذلك. وهل يمكن ليدي أن تخذلاني كما يخذل نخس العظام لاعب البيسبول؟ لست أدري؟ فلم أصب في عقبي إلا مرة واحدة عندما كنت أسبح فوطأت قدمي سمك الراي فلسعتني لسعة شلت رجلي فكابدت من الآلام ما لا يطاق... فكر أيها الشيخ في شيء جميل، ودع عنك الأحزان، فكل دقيقة تمر إلا وأنت تقترب من بيتك، وها أنت تبحر وقد خف قاربك من أربعين رطلا من اللحم.

كان الشيخ يعلم جيدا ما ينتظره وهو وسط التيار، ولكن لا حيلة له الآن. ثم صاح قائلا:

- بلى، هناك حيلة، سأربط السكين في طرف أحد المجدافين.

ثم ربطه وذراع الدفة تحت ساعده وحبل الشراع تحت قدمه، وقال:

- إنني شيخ على كل حال، ولكنني لست أعزل من السلاح.

هب نسيم عليل، ومضى الشيخ يبحر وهو ينظر إلى النصف الأمامي من سمكته فعاوده بعض الأمل، ثم ناجى نفسه:

- إنه لمن الحماقة أن يفقد الإنسان الأمل، بل إن اليأس لخطيئة. لا تفكر في الخطيئة، عندك من المشاكل ما يكفي.

وعاوده التفكير في الخطيئة وتساءل:

- ما معنى الخطيئة؟ لا أعرف معناها، ولست متأكدا من أنني لا أومن بها، قد أكون اقترفت ذنبا بقتل السمكة، أفترض أن يكون ذلك حقا، ولكنني قتلتها لأعيش وليعيش آخرون معي. وإذا كان قتلها ذنبا، فكل شيء خطيئة في هذا العالم. دع عنك الخطيئة الآن، ولا تفكر فيها،

فهناك كثير ممن يتقاضون أجورا للتفكير فيها! لقد ولدت أيها الشيخ لتكون صيادا، كما ولدت السمكة لتكون سمكة. كان "سان بيدرو" صيادا كما كان والد "ديماجيو" العظيم صيادا أيضا.

كان الشيخ يحب أن يفكر في جميع الأمور التي تعترض حياته؛ فلم يكن له مذياع أو جريدة تلهيه عن التفكير. كان يفكر كثيرا ويستهويه التفكير في الخطيئة، ثم ناجى نفسه:

- لم تقتل أيها الشيخ السمكة لتعيش أو تبيع لحمها، ولكنك قتلتها لتفتخر بقتلها، لأنك صياد. كنت تحبها، وقد كانت حية ترزق، وها أنت تحبها وقد صارت جثة هامدة. إن كنت تحبها، فليس لها ذنب لتقتلها، أم ترى إن قتلها أفظع وأمر؟

ثم قال:

- لا تفكر كثيرا أيها الشيخ... ولكنك وجدت متعة في قتل القرش، إنه يعيش على الحيتان كما تفعل، إنه ليس بالحيوان الذي يقتات على الجيف، وليس نهما كباقي القروش، إنه جميل نبيل، ولا يخشى أي شيء... لقد قتلتَه دفاعا عن النفس، وحين قتلتَه فإنك أحسنتَ قتله، وما في الدنيا إلا القتل، الكل يقتل الكل، كل على هواه، فالصيد يقتلني كما يحييني، والغلام يمدني بالحياة. علي أن لا أخدع نفسي أكثر من اللازم.

ثم انحنى على حافة القارب، وانتزع من المكان المنهوش قطعة من لحم السمكة، فمضغها متذوقا طعمها وجودتها. كانت القطعة متماسكة طرية كلحم الماشية إلا في حمرتها. لم يكن لحمها ذا ألياف، فعلم الشيخ أن لحمها سيباع بأعلى سعر في السوق.

لم يكن هناك سبيل لأن تندمل جراح السمكة، فرائحة الدم تفوح في جميع الاتجاهات. وأدرك الشيخ أن وقت المحن آت لا محالة.

كانت الرياح هادئة، تتجه قليلا نحو الشمال الشرقي، وتلك علامة على أنها لن تهدأ. رنا الشيخ إلى الأفق، فلم ير شراعا ولا دخان سفينة.

ليس هناك غير أعشاب الخليج الصفراء وأسماك طائرة تتقدم حنية القارب ذات اليمين وذات الشمال. أما السماء، فقد خلت من الطيور.

مضت ساعتان والشيخ يبحر في عرض البحر، تارة يتكئ على مؤخرة القارب، وتارة أخرى يمضغ لحم السمكة ليبقى يقظا قويا. وفجأة، تراءى له قرشان، أحدهما يتقدم الآخر، ثم صاح:

- آي!!

لا يمكن أن تشعر بما شعر به الشيخ عندما صرخ صرخة تشبه صرخة من دق إسفينا فاخترق يده إلى الخشب.

ثم صاح الشيخ:

- غالانوس!!

لقد رأى زعنفته الثانية وهي تشق صفحة الماء بعد زعنفته الأولى، وتبين له أن هذا القرش من النوع ذو الأنف المحدبة والزعانف السوداء، مثلث الشكل؛ له ذيل يتحرك في مد وجزر وكأنه مكنسة. لقد جذبتهما رائحة الدم وأعماهما الجوع القاتل، فتارة يقتفيان رائحة السمكة، وتارة يفقدانها، ولكنهما يقتربان لا محالة.

أوثق الشيخ الشراع وأرسى ذراع الدفة، وربط السكين في طرف المجداف برفق ورفعه ما استطاع. كانت يداه تصارعان الألم، فتح يديه ما استطاع ثم أحكم القبض على المجداف بِلينٍ، قبضا يتغلب به على الألم، ويمنع يديه من الخيانة! وراح يرقب قدوم القرشين. بدا القرشان ورأساهما محدودبين عريضين مسطحين وزعانفهما الصدرية عريضة بيض رؤوسها. كانا قرشين حقودين، رائحتهما كريهة، يقتاتان على الجيف، وملامح القتل والدمار بادية عليهما. حتى إذا اشتد بهما الجوع ولم يجدا ما يأكلانه هاجما القارب؛ مجدافا ودفة. إن هذا النوع من القروش يلتهم أرجل السلاحف عندما تكون عائمة فوق سطح الماء، وقد تهاجم الإنسان عندما تكون جائعة، وإن لم تكن فيه رائحة الدم.

صاح الشيخ:
- آي، غالانوس، تعال يا غالانوس!!

أقبل القرشان، ولكنهما لم يهاجما كما فعل القرش الأول "ماكو". أما أحدهما، فالتف وتوارى عن الأنظار تحت القارب وراح يجذب السمكة جذبا ارتج له مركب الشيخ. أما الثاني، فحدق في الشيخ بعينين صفراوين وهجم بسرعة البرق فاتحا فكيه فنهش السمكة حيث نهشها القرش الأول. وفي أعلى رأسه الأسود بدا للشيخ الخط الذي يصل الدماغ بالعمود الشوكي واضحا، فطعنه بسكينه المشدود إلى المجداف، ثم سل السكين ثانية، فعاود طعنه في عينيه الصفراوين، وكأنهما عيون قط. ابتعد القرش عن السمكة، وبدأ يختفي في الماء محتضرا وهو يبتلع ما نهشه من لحمها.

أما القرش الآخر، فبقي تحت القارب يهاجم السمكة فيرتج القارب عند كل هجوم. أَمَالَ الشيخ الشراع ليستدير القارب، وتلك حيلة منه يبعد بها القرش من تحته. ولما رآه الشيخ، انحنى على حافة القارب وطعنه طعنة لم تنفذ في جسمه، فقد كان جلده سميكا. لم تؤلم الطعنة القرش كما آلمت يدي الشيخ وكتفيه. اندفع القرش من الماء، ولم يكد أنفه يظهر حتى طعنه الشيخ فوق رأسه المسطح. سل الشيخ السكين، فطعنه ثانية حيث الطعنة الأولى، طعنة لم تزد القرش إلا تمسكا بفريسته، وأخرى في عينه اليسرى، ولكنها لم تزده إلا إصرارا.

صاح الشيخ:
- لا!!

ثم صوب السكين بين النخاع والدماغ، كانت ضربة قاسية أصابت الغضروف فاستأصلته. سل الشيخ السكين ووضعه في فم القرش، فحلحل فكيه كي ينفتحا. أدار الشيخ السكين في فم القرش حتى انفرج فكاه، وتهاوى في الماء، فخاطبه بقوله:

- اغرب عن وجهي، إليك عني، واذهب بعيدا في الأعماق حيث

صديقك، إن لم تكن أمك.

مسح الشيخ السكين، ووضع المجداف، وأحكم الشراع، وأعاد القارب إلى مجراه، وهو يقول:

- لقد أخذا ربع السمكة، أخذا ربع لحمها الجيد، كم تمنيت أن أكون في رحلة أحلام، وكم وددت لو أنني لم أصد السمكة، وا أسفاه عليك أيتها السمكة، لقد ضاع كل شيء!!

لم يعد الشيخ يرغب في رؤيتها، كانت ملطخة بالدماء، يغسلها الماء فيسيل الدم من جديد، تبدو فضية كأنها ظهر مرآة، وقال:

- كان علي أن لا أذهب بعيدا في عرض البحر، لقد كانت مغامرة لي ولك أيضا، آسف أيتها السمكة.

ثم حدث نفسه:

- قم أيها الشيخ، وانظر إلى عقدة السكين في المجداف، وأحكم وثاقها إن استرخت، واعتن بيديك، فالأوقات العصيبة قادمة لا شك.

وبعد أن استوثق من رباط السكين، قال:

- يا ليت معي حجرا أسن عليه السكين. كان علي أن أصحب معي أمورا كثيرة، ولكنك لم تصحبها أيها الشيخ! لا تفكر في ما ليس عندك، وفكر فيما يمكن فعله بما لديك.

وسخر من نفسه قائلا:

- ما أكثر نصائحك، لقد تعبت منها.

ثم أمسك بذراع الدفة، وغطس يديه في الماء، والقارب يشق طريقه نحو اليابسة، ثم قال:

- يعلم الله كم نهش ذلك اللعين من لحم السمكة! فماذا بقي منها؟ إنها تبدو أخف وزنا مما كانت عليه". لم يكن الشيخ يرغب في التفكير في ما ضاع من لحمها، ولكنه كان يعرف أن كل نهشة تُفقد السمكة مزيدا من اللحم، وتُسيل دماء كثيرة تمتد في عرض البحر كأنها طريق سيار.

لقد كانت سمكة تُؤَمن عيش إنسان لفصل شتاء كامل! ثم حدث

نفسه:

- لا تفكر في ذلك، واسترح الآن، وأعد نفسك ويديك للدفاع عما تبقى منها. إن رائحة دمها التي تفوح من مياه البحر أعظم من أن تقاس بقطرات الدم التي تسيل من يدي... إن الدم الذي يسيل من يدي قد يحفظها من التشنج.

ثم ناجى نفسه قائلا:

- ماذا عساي أن أفكر فيه الآن؟ لا شيء، علي ألا أفكر في شيء، وعلي أن أترقب العدو القادم، يا ليت ما أعيشه حلما، ولكن من أدراك؟ قد تكون النتيجة خيرا.

وجاء قرش آخر، محدودب الأنف، شكله شكل خنزير، انقض على السمكة كما ينقض الخنزير على معلفه، بفم واسع عريض، لو أدخلت فيه رأس إنسان لاستعابه! وبينما القرش يهم بنهش السمكة، سدد الشيخ إليه طعنة بسكينه في الدماغ. كانت ضربة مميتة، انكسر السكين على إثرها، وانقلب القرش وهو يتلوى.

قاد الشيخ القارب دون أن ينظر إلى القرش وهو يغرق في الماء. كان غرقه بطيئا، فقد تهاوى جسمه ببطء إلا أن صار أثرا بعد عين. كان مشهد القروش، وهي تغرق، يفتن الشيخ دائما، ولكنه لم يأبه بالنظر إليه هذه المرة، ثم قال:

- لم يبق لي الآن إلا المحجن، ولكنه لا يكفي، وعندي المجدافان، وذراع الدفة، والهراوة القصيرة.

ثم حدث نفسه قائلا:

- لقد هُزمت لأني شيخ هرم، فأنا لا أقدر على ضرب القرش حتى الموت، ولكني سأحاول ما استطعت، سأحاول وبيدي المجداف والهراوة القصيرة وذراع الدفة.

كان الوقت أصيلا، وضع الشيخ يديه في الماء مرة أخرى يتأمل الحياة، وعلى امتداد النظر، لم ير إلا السماء و البحر متعانقين، كانت هناك رياح أكثر من المعتاد، والشيخ كله أمل أن يرى شاطئ النجاة، ثم قال:

- لقد تعبتَ أيها الشيخ، لقد تعِبَت نفسُك.

وبعد الغروب، قدم قرشان آخران يسبحان جنبا إلى جنب، رأى الشيخ زعانفهما السمراء وهي تقتفي أثر السمكة، لم يكونا مهتمين برائحة الدم، بل كان همهما الشيخ وقاربه.

ثبت الشيخ ذراع الدفة، وأحكم الشراع، ومد يده إلى مؤخرة القارب بحثا عن الهراوة، كانت هراوة من قبضة مجداف مكسور، نشره الشيخ بالمنشار حتى صار طوله قدمين ونصف؛ حمل الهراوة من مقبضها الأحرش كي لا تنزلق، وأحكم قبضته عليها بيده اليمنى وهو يرقب قدوم القرشين، كانا معا من نوع "الغالانوس". وحدث نفسه قائلا:

- علي أن أترك الأول ينشب أنيابه في السمكة لأضربه على أرنبة أنفه أو على رأسه.

وأقبل القرشان جنبا إلى جنب، واقترب أحدهما من الشيخ وقد فتح فكيه ليقبض على بطن السمكة الفضي، رفع الشيخ الهراوة عاليا ليهوي بها على القرش بكل ما أوتي من قوة، وبينما العصا تهوي على رأسه، استشعر الشيخ صلابة مطاطية في رأس القرش؛ كما استشعر صلابة عظمه أيضا، فعاود الضربة فرجع القرش خائبا. أما القرش الآخر فلم يكف عن الإقبال والإدبار، وأخيرا هجم فاتحا فكيه، وقِطَع من لحم السمكة متناثرة بينهما. ولما هم بنهشها، أشهر الشيخ هراوته فضربه على رأسه، فحدق فيه القرش وهو ينثر ما بين فكيه من لحمها. ثم هوى عليه بضربة أخرى، فتراجع وهو يبتلع ما نهشه من لحم، لم تصب الضربة إلا القشرة المطاطية من رأس القرش، ثم خاطبه بقوله:

- تعال هنا يا غالانوس، تعال مرة أخرى.

لبى القرش نداء الشيخ، فأقبل مندفعا مطبقا فكيه، فرفع الشيخ الهراوة عاليا وهوى بها على رأس القرش بكل قواه، ضربه ضربة أحس الشيخ بصلابة عظام رأس القرش، ثم ضربه ثانية في المكان عينه، فتقهقر القرش الورى وهو يطرح ما علق بفكيه من لحم.

وقف الشيخ يترقب ظهوره، ولكنه ذهب إلى غير رجعة. وفجأة، بدا

له قرش آخر يحوم فوق سطح الماء. ثم حدث نفسه:
- إني لا أقدر على قتل كل هذه القروش. كنت أقدر على ذلك في شبابي، ولكني أصبتهما وأدميتهما، ولا أحد منهما في أحسن حال، ولو كنت أملك عصا طويلة أمسكها بيدي الاثنتين، لقتلت القرش الأول من غير شك، أجل، لكنت قاتله ولو كنت طاعنا في السن.

لم يكن الشيخ يرغب في رؤية السمكة، فنصف لحمها قد التهمته القروش. أما الشمس فقد غابت عندما كان يقاتلها.

وقال:
- سيعم الظلام وشيكا، وستسطع أنوار "هافانا" في الأفق، وإن كنت بعيدا جهة الشرق، فسأرى أضواء شاطئ من الشطآن الجديدة.

ثم حدث نفسه:
- لا يمكن أن أكون بعيدا عن الشاطئ، وكم وددت أن لا يفتقدني أحد، ومن هذا الذي سيفتقدني إلا الغلام، ولكنه يعرفني ويعرف قدري، ويثق بي. وقد يحزن على غيابي بعض الصيادين وربما أناس آخرون، إني أعيش في بلدة طيبة.

لم يعد الشيخ يرغب في التحدث إلى السمكة، فقد مزقتها القروش. وفجأة، جالت فكرة في خاطره فخاطبها:
- لقد كنتِ سمكة، وها أنتِ أصبحتِ نصفها، لقد جنيت عليك وعلى نفسي، ولكن لا تقلقي، لقد قتلنا معا قروشا عديدة وأدمينا الكثير منها، وكم هلك من القروش! فالرمح المغروس في رأسك لم يذهب سدى.

وحلا للشيخ أن يـتخيل السمكة تسبح حرة طليقة ليسـألها:
- ماذا كنت ستفعلين لو هاجمتك القروش؟

فأجاب الشيخ:
- سأقطع منقارها لأحاربهم به، فليس هناك فأس ولا سكين، ولكن هب أن لديك فأسا وسكينا تربطه إلى المجداف، يا له من سلاح! عندها سنقاتلهم معا جنبا إلى جنب. ماذا ستفعل أيها الشيخ لو هاجمتك

القروش هذه الليلة؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟

أجاب:

- سأقاتلهم، سأقاتلهم حتى الموت.

عم الظلام وسكن الليل إلا من أصوات الريح وأصوات الشراع تسابق الزمن. ومازالت أنوار "هافانا" لم تلح في الأفق. أحس الشيخ وكأنه قد قضى نحبه وأسلم روحه. شبك يديه متحسسا كفيه فأدرك أنه حي يرزق. وأسند ظهره إلى مؤخرة القارب، وتحسس كتفيه؛ فعلم أن الحياة لا زالت تدب في عروقه.

- لقد نذرت إن فزت بالسمكة أن أتلو الصلوات. وهأنذا ما زلت لم أف بنذري. إنني متعب الآن ومن الأفضل أن أضع الكيس على كتفي.

اتكأ الشيخ على مؤخرة القارب يقوده ويرقب الأضواء علها تلوح في الأفق، ثم حدث نفسه:

- إني أملك الآن نصف السمكة، وقد أكون محظوظا للفوز به وحمله إلى شاطئ النجاة، لا بد أن أكون محظوظا. لا أعتقد أنك ستكون محظوظا. أفسدت حظك بإبحارك بعيدا في عرض البحر.

ثم صاح:

- لا تكن أبله، كن يقظا وأمسك بذراع الدفة جيدا، فقد يحالفك الحظ. لو كان الحظ يباع لاشتريته.

ثم سأل نفسه:

- بماذا ستشتريه؟ أأشتريه بحربون ضائع، أم بسكين مكسور، أم بيدين سقيمتين؟... ولم لا؟ لقد حاولت شراءه بأربعة وثمانين يوما في عرض البحر. وكادت تلك الأيام أن تبيعه لك.

ثم حدث نفسه:

- دع عنك هذا الهراء ولا تفكر فيه، فللحظ أشكال كثيرة، ومن ذا يعرفه؟ وإن أتى الحظ فسآخذ منه حظي وسأدفع الثمن. يا ليت أضواء "هافانا" تلوح في الأفق، أتمنى أشياء كثيرة، ولكن هذا كل ما أتمناه الآن.

ثم استوى مريحا يقود قاربه، ومن ألمه علم الشيخ أنه حي يرزق.

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً، ولاحت في الأفق انعكاسات أضواء المدينة على مياه البحر. كانت هذه الأضواء أشبه ما تكون بالضوء الذي ينتشر في السماء قبل بزوغ القمر. ومع تقدم المسير، بدت هذه الأنوار ساطعة وسط عباب البحر وتلاطم الأمواج. ووجَّه الشيخ قاربَه نحو الأضواء وقد تهيأ له أنه اقترب من شاطئ النجاة.

ثم تنفس الصعداء قائلا:

- ها هو وقت المتاعب قد ولى، ولكن قد تهاجمني القروش ثانية؛ وماذا عساي أن أفعل وأنا أعزل؟

كان الشيخ متشنجا، يؤلمه جسده وما به من جروح من قساوة برد الليل، فتمنى قائلا:

- أتمنى ألا أقاتل مرة أخرى، أتمنى ألا أجبر على القتال.

وما إن انتصف الليل حتى خاض المعركة التي لم يتمنها الشيخ. كانت معركة غير مجدية، وغير متكافئة.

اندفع سرب من القروش، لم ير منها إلا زعانفها وهي تشق صفحة الماء، ووهجها الفوسفوري وهي تنقض على السمكة. هب لنجدة سمكته؛ يضرب القروش على رأسها ويسمع صوت فكوكها وهي تنهش اللحم، والقارب يهتز ذات اليمين وذات الشمال.

بات يضرب القروش مستميتا يهتدي بما يحسه ويسمعه. وفجأة، وقعت منه هراوته فراحت إلى غير رجعة، نتر الشيخ ذراع الدفة وحمله بيديه وراح يضرب به دون هوادة. انتهت القروش إلى مقدم القارب زرافات ووحدانا، في كر وفر، تنهش السمكة وتقطع لحمها إربا إربا.

وأخيرا انقض قرش على رأس السمكة، وكان آخر ما تبقى منها. رفع الشيخ ذراع الدفة فهوى به على رأس القرش وكأن فكيه استعصى عليهما نهش رأسها. انهال الشيخ عليه ضربا حتى انكسر ذراع الدفة ولم يبق في يديه منها إلا مقبضها الحاد، فغرسه في جسم القرش مرة

تلو الأخرى حتى تولى مدبرا. كان هذا آخر قرش يهاجم السمكة؛ فلم يبق فيها شيء يؤكل.

تقطعت أنفاس الشيخ، وأحس بطعم غريب في فمه، طعم حلو ممتزج بطعم النحاس. اندهش الشيخ منه فبصقه في البحر وقال:

- كليها أيتها القروش، واحلمي بأنك قتلت رجلا.

علم الشيخ أنه مني بهزيمة مُرة لا حول ولا قوة له أمامها، ورجع إلى مؤخرة القارب فوجد مقبض ذراع الدفة مكسورا يقود به ما تبقى له من مسير. لف كتفيه بالكيس لحافا، وراح يقود قاربه نحو اليابسة. يقود بلا تفكير ولا إحساس. رمى كل الأحلام وراء ظهره، همه الوحيد أن يصل إلى كوخه بسلام.

وفي الليل، جاءت القروش تنهش ما بقي بعظام السمكة من فتات اللحم، تلتقطه كما يلتقط الجائع الفتات من مائدة الطعام. لم يأبه الشيخ بها ولم يعرها أي اهتمام. كان كل همه أن يقود قاربه نحو الشاطئ. كان القارب خفيفا ومريحا، فلم يعد هناك ما يثقل كاهله.

ثم ناجى نفسه:

- إن القارب بخير ولم يصب بأي أذى إلا ما لحق بذراع الدفة، وهذا شيء يسهل إصلاحه.

وبينما كان يسابق الريح، تراءت له الأنوار على الشاطئ فعرف مكانه في البحر، وأنه لم يبق بينه وبين أهله إلا القليل.

ثم شرع يحدث نفسه:

- إن الرياح صديقة لنا، نعم صديقة في بعض الأحيان، كما أن البحر صديق للإنسان بكل ما فيه من أعداء وأصدقاء؛ أما الفراش، فهو صديق لي أيضا، وما أريحه! إنه مريح عندما يعود المرء خاوي الوفاض، لم أكن أعلم هذا على الإطلاق.

ثم صاح:

- وما الذي هزمني؟ لا شيء، سوى أنني ذهبت بعيدا في عرض البحر!

وعندما دخل القارب المرفأ الصغير، وجد أنوار السطيحة قد أطفئت.

كان الكل في مضجعه في سبات عميق. كانت العاصفة قوية إلا أن الهدوء كان يخيم على مرسى السفن. تقدم الشيخ بقاربه نحو رقعة حصباء تحت الصخور، لم يكن هناك من يعينه على جذب القارب، فجذبه بنفسه ما استطاع، ثم نزل منه وربطه بصخرة كبيرة.

نزع الشيخ السارية وحملها على كتفيه ولف الشراع حولها وشد وثاقه، ثم بدأ يصعد المرتفع، وعند الصعود، أدرك الشيخ مبلغ التعب الذي ألم به. توقف قليلا والتفت إلى الخلف، وفي غمرة انعكاس أضواء الطريق، تراءى له ذنب السمكة الكبير محاديا لمؤخرة القارب. كما تراءى له عمودها الفقري الأبيض المنهوش، ورأسها الداكن، والرمح الناتئ؛ تراءى له كل شيء وقد تعرى من اللحم الذي كان يكسوه.

واصل الشيخ صعوده المرتفَع إلى أن خارت قواه، فانطرح أرضا والسارية تلف كتفيه، هم بالنهوض، ولكن دون جدوى، ثم استوى، وراح ينظر إلى الطريق. هناك على الرصيف الآخر، مرت قطة تبحث عن رزقها. نظر إليها حتى توارت عن الأنظار، ثم راح يتأمل الطريق. وضع الشيخ سارية القارب على كتفيه، ثم نهض مرة أخرى ليستأنف المسير. توقف خمس مرات قبل أن يصل إلى كوخه.

ولما دخل الكوخ، أسند السارية على الحائط. وفي عتمة الظلام، وجد قارورة ماء فشرب منها، ثم استلقى على الفراش مسدلا اللحاف على كتفيه وأطرافه. نام الشيخ ووجهه على الصحف القديمة، وذراعاه ممتدتان وراحتا يديه إلى الأعلى.

وفي الصباح، وبينما الشيخ في سبات عميق، أطل الغلام من الباب. لم يستيقظ الغلام مبكرا كعادته ليتفقد كوخ الشيخ. كان الجو عاصفا، فلم تغادر القوارب المرسى. أطل الغلام فرأى حال يدي الشيخ وما ألم بهما. رآه يتنفس ثم أجهش بالبكاء. خرج من الكوخ في هدوء، ليعود بفنجان قهوة لمعلمه، وعيناه تسيلان بالدمع دون انقطاع.

احتشد الصيادون حول قارب الشيخ ينظرون إلى الهيكل المربوط إليه. نزل أحدهم إلى الماء، بعد أن لف سرواله، وأخذ حبلا وراح يقيس طول هيكل السمكة؛ أما الغلام، فلم يكن في حشد الصيادين، فقد كان أول من رآه، وقد عهد إلى أحدهم بحراسة القارب.

صاح أحد الصيادين:

- كيف حال الشيخ؟

فصاح الغلام مجيبا:

- إنه نائم، أرجو ألا يزعجه أحد.

لم يأبه الغلام أن يراه الصيادون والدموع تنهمر على خديه. وصاح الصياد الذي قاس الهيكل:

- إن طوله ثمانية عشر قدما من الأنف حتى الذيل.

أجاب الغلام:

- لا أستغرب ذلك.

ذهب إلى السطيحة ليجلب لشيخه صفيحة من القهوة.

سأل الغلام:

- قهوة ساخنة وافرة الحليب والسكر".

أجاب صاحب السطيحة:

- أتريد شيئا آخر.

قال الغلام:

- لا، لنتريث قليلا، حتى نعرف ماذا يريد أن يأكل"

قال صاحب السطيحة:

- يا لها من سمكة كبيرة... لم يسبق لي قط أن رأيت مثلها، وأنت أيضا أيها الغلام، لقد اصطدت أمس سمكتين رائعتين.

قال الغلام:

-تبًّا لهما!

وأجهش ثانية بالبكاء.

ثم قال له صاحب السطيحة:

obeikandl.com

- أتريد شيئا تشربه؟

أجاب الغلام:

- لا، قل لهم ألا يزعجوا (سانتياكو)، سأعود بعد قليل.

- أبلغه أسفي عليه.

أجاب الغلام:

- شكرا.

حمل الغلام صفيحة القهوة الساخنة إلى كوخ الشيخ، وجلس إلى جانبه حتى استيقظ، فتح الشيخ عينيه، ولكنه سرعان ما غرق في سبات عميق، ثم ذهب الغلام ليستعير بعض الحطب ليدفئ به صفيحة القهوة عندما يصحو. وأخيرا، استيقظ الشيخ.

قال الغلام:

- لا تنهض، اشرب.

بعد أن صب له القهوة في الفنجان. تناوله الشيخ ثم احتساه.

قال الشيخ:

- لقد هُزمتُ يا مانويل... لقد هزمت فعلا.

- لم تهزمك السمكة.

-"هذا صحيح، فقد أتت الهزيمة فيما بعد"،

- إن بدريكو يحرس القارب والمعدات، ماذا ستفعل برأس السمكة؟

- دع بدريكو يقطعه ليستعمله في أشراك الصيد.

- أما رمحها؟

- احتفظ به أنت إن أردت.

أجاب الغلام:

- سأحتفظ به... ماذا نحن فاعلون؟

سأل الشيخ:

- هل بحثوا عني في عرض البحر؟

- نعم، لقد بحثوا عنك بحرس السواحل والطائرات.

قال الشيخ:

obeikandl.com

- إن المحيط عريض واسع، وقاربي صغير لا يكاد يُرى. ما أحلى أن تخاطب شخصا أمامك، وما أوحش أن تحدث البحر أو أن تحدث نفسك. لقد افتقدتك كثيرا يا ولدي، حدثني عن صيدك.

- لقد اصطدت سمكة واحدة في اليوم الأول، وواحدة في اليوم الثاني، واثنتين في اليوم الثالث.

- جميل جدا.

- هل لي أن أصطاد معك؟

- لا يا ولدي، لستُ محظوظا، ولن أكون.

- ليذهب الحظ إلى الجحيم.

قال الغلام:

- سأجلبه معي، سأجلبه معي.

ثم سأله الشيخ:

- ترى ماذا سيقول أبواك؟

أجاب الغلام:

- لا أبالي، لقد اصطدت البارحة سمكتين، سنذهب معا لنصطاد؛ فهناك أمور كثيرة علي أن أتعلمها.

- علينا برمح حاد نصحبه معنا في الزورق دائما، بإمكاننا أن نصنع نصله من رقاقة حديدية نأخذها من سيارة (فورد) قديمة، ثم نشحذه في (كوانا باكوا)، سيكون رمحا حادا غير مسقي كي لا ينكسر، أما سكيني فقد انكسر.

- سآتيك بسكين أخرى، وعندها سيكون لي سكين آخر من رقاقة مشحوذة، ترى كم ستستمر هذه الريح العاصفة؟

- ربما ثلاثة أيام أو أكثر.

- سأحضر كل شيء.

قال الغلام:

- أما أنت فعليك بيديك.

- أعرف جيدا كيف أعتني بهما. لقد تقيأت البارحة شيئا غريبا

obeikandl.com

فأحسست كأن صدري ينشق.

قال الغلام:

- اعتن بصدرك أيضا... استلق أيها الشيخ، فسآتيك بقميص نظيف وطعام تأكله".

ثم طلب الشيخ من الغلام أن يأتيه بجرائد الأيام التي كان يصارع فيها الموت في عرض البحر.

- استعد عافيتك بسرعة أيها الشيخ؛ فعندك أشياء كثيرة علي تعلمها، كم قاسيت أيها الشيخ؟!

أجاب الشيخ:

- عانيت الكثير.

قال الغلام:

- سأجلب لك الطعام والجرائد... استرح أيها الشيخ، سأجلب لك الدواء أيضا من الصيدلية تعالج به يديك.

- لا تنس أن تقول لرودريغو إن رأس السمكة له.

- لن أنسى، سأبلغه.

خرج الغلام من الكوخ، واجتاز الطريق المليئ بالصخور المرجانية المتآكلة، وأجهش بالبكاء ثانية.

وفي المساء، كانت هناك مجموعة من السياح يلهون على سطيحة المقهى، وكانت سائحة تنظر إلى المرسى المليء بعلب الجعة الفارغة والأسماك الميتة. وفجأة، رأت عمودا فقريا ضخما طويلا أبيض اللون ينتهي بذيل هائل منتصب تتلاعب به الأمواج بين مد وجزر، بينما الريح الشرقية تدفع البحر الهادئ خارج بوابة المرسى.

سألت السائحة النادل وهي تشير إلى العمود الفقري الضخم الذي صار نفاية تتأهب لرحلة مد وجزر في عرض البحر:

- ماذا هناك؟

أجاب النادل بلغته:

- "Tiburon" يعني "القرش"

وهو يحاول أن يفسر ماذا جرى للشيخ في رحلة الحظ المفقود.

فأجابت مندهشة:

- ما كنت أعرف أن للقروش مثل هذه الأذناب الجميلة الرائعة الشكل!

ثم أضاف زميلها قائلا:

- وأنا أيضا، ما كنت أعرف ذلك!

وهناك في أعلى الطريق، وداخل الكوخ، أكب الشيخ على وجهه وغرق في نوم عميق والغلام إلى جانبه يرقبه، نوم عميق حمله في رحلة أحلام بين الأسود.

obeikandl.com